العلاقة بين الآثار والتاريخ

دراسة حول تكامل المنهج العلمي وأهميته في تحقيق الأحداث التاريخية الإسلامية

[١]

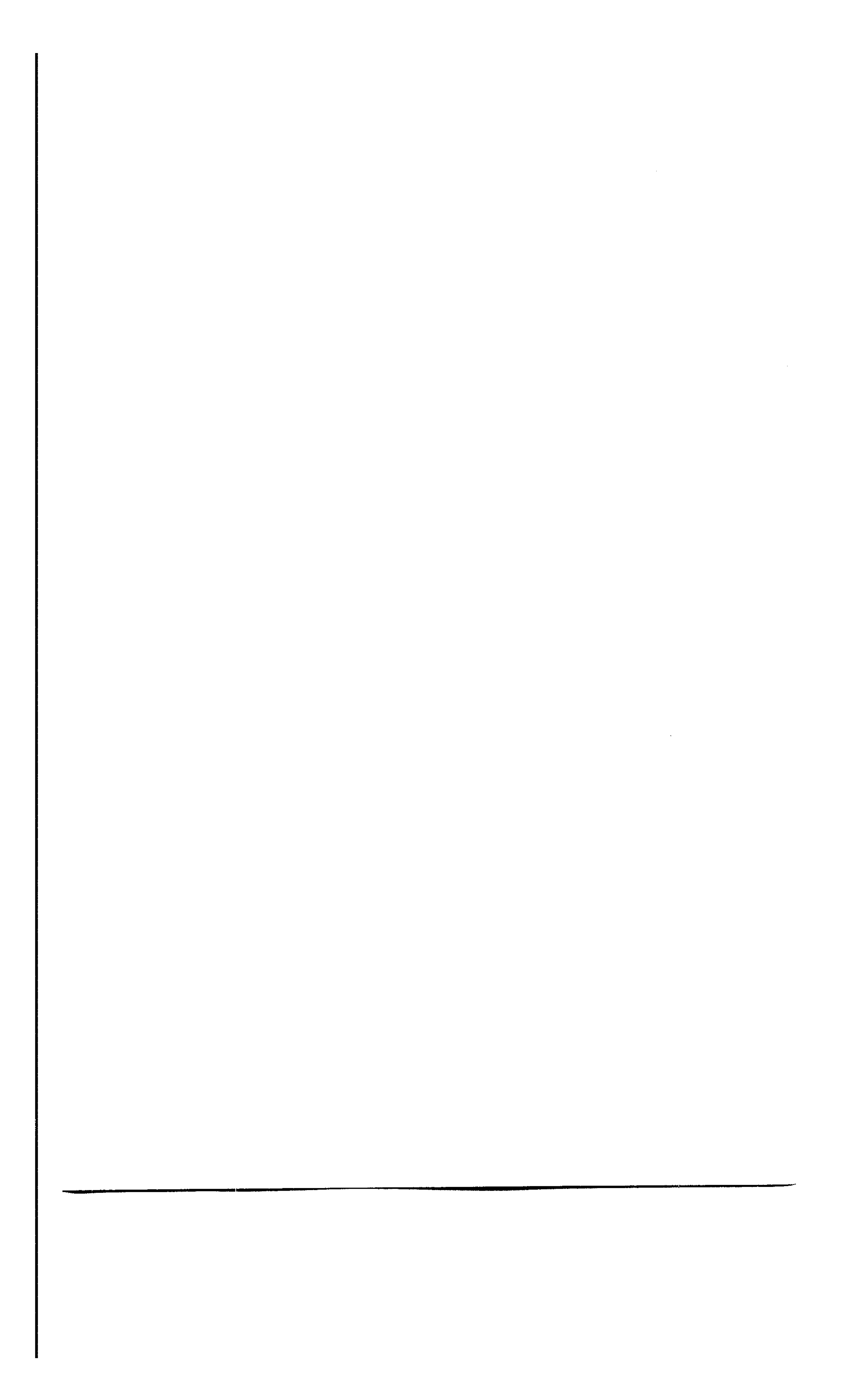
د . محمد حمزة إسماعيل الحداد *

مقدمة :

الآثار والتاريخ صنوان لا يفترقان وعلمان متضامنان، بل يمكن القول بأنه ما من ترابط بين علم وعلم يعدل تلك العلاقة القوية القائمة بين الآثار والتاريخ، إنهما الوجهان لقطعة عملة واحدة فكلاهما يكمل الآخر، ومن ثم لا غنى لأحدهما عن الآخر.

وإذا كانت الروايات والنصوص التاريخية تشكل المنبع الذي ينهل منه المؤرخ الحديث في رصد حركة التاريخ الإسلامي وتسجيل أحداثه ووقائعه وتتبعها في مختلف الأقطار الإسلامية على مدار العصور المتعاقبة، فإن الآثار الإسلامية عامة والنقوش الكتابية منها خاصة تعد من المصادر الأصيلة التي يصعب الطعن في قيمتها أو التشكك في أصالتها فهي من جهة معاصرة

* ليسانس الآثار من قسم الآثار الإسلامية - كلية الآثار - جامعة القاهرة مايو ١٩٨٠م.
- ماجستير في الآثار الإسلامية - كلية الآثار - جامعة القاهرة ١٩٨٧م .
- دكتوراه في الآثار الإسلامية - كلية الآثار - جامعة القاهرة ١٩٩٠م .
- يعمل الآن أستاذ الآثار الإسلامية المشارك بقسم الآثار والمتاحف - كلية الآداب - جامعة الملك سعود.



للحقائق والأحداث التي تسجلها كما أنها محايدة فتعوض النقص وتسد الفراغ في المصادر التاريخية، ومن جهة ثانية فإنها تمتاز بأن تواريخها صحيحة - إلا فيما ندر- والأعلام التي تذكر بها يقل التحريف والتصحيف فيها، ومن جهة ثالثة فهي تفيد في مراقبة أقوال المؤرخين وإثبات صحتها أو الكشف عن أخطائها وحسم الخلاف فيما بينها ، كما أنها تميط اللثام عن حقائق كثيرة جديدة مستمدة منها لم تذكرها أو تعرض لها المصادر التاريخية على اختلافها، وهو الأمر الذي أفردنا له دراسة مستقلة مطولة [1].

وهذا البحث يعد استكمالا للدراسة المشار إليها آنفاً، فهو يهدف إلى إبراز أهمية تلك العلاقة القوية وما يمكن أن يحققه تكامل المنهج العلمي بين الآثار والتاريخ من نتائج مهمة للغاية في تحقيق الأحداث التاريخية في العصر الإسلامي وبالتالي يمكن تقديم صورة نقية هي أقرب ما تكون إلى الحق والواقع.

وسوف نركز في هذا البحث على مدى اتفاق النقوش الآثارية وتطابقها مع النصوص والروايات التاريخية ، وهو الأمر الذي يجعل من هذه الأخيرة

---

(١) النقوش الكتابية الإسلامية وقيمتها التاريخية، المبحث الأول، سلسلة دراسات آثارية، العدد ٢، الرياض، الجمعية السعودية للدراسات الأثرية، رمضان-شوال ١٤٢٠هـ/ يناير ٢٠٠٠م، ص١-٣٧٧، أشكال رقم ١-٥٨ ؛ المبحث الثاني ، سلسلة دراسات آثارية، العدد ٣، (قيد النشر).
ومما له دلالته في هذا الصدد أن المبحث الأول قد خصص لإبراز أهمية النقوش في مراقبة أقوال المؤرخين وتصحيح الأخطاء التاريخية الشائعة وحسم الخلاف بين المؤرخين، أما المبحث الثاني قد خصص لإبراز أهمية النقوش في إماطة اللثان عن حقائق جديدة مستمدة منها ولم ترد في المصادر التاريخية.
هذا وتجدر الإشارة إلى أن عدم ذكر المعلومات النشرية الكاملة لعدد من مصادر ومراجع البحث إنما يرجع إلى أن هذه المعلومات مذكورة كاملة في المبحث الأول من البحث المشار إليه آنفاً، والذي يعد البحث الذي نحن بصدده استكمالاً له ولذلك فإنه حرصاً على عدم زيادة حجم البحث، أشرت إلى هذه المصادر وتلك المراجع بشكل مختصر، أما المصادر والمراجع التي لم تستخدم في المبحث الأول فأشرت إليها كاملة حال ورودها لأول مرة.

حقيقة مؤكدة وبالتالي فإنه يعزز ثقتنا بمؤرخينا ، وحسبنا أن نستشهد للدلالة على ذلك بما ذكره الأنصاري بقوله "والحقيقة الماثلة للعيان هي أنه إذا اتفق التاريخ الخبري والشاهد الأثري على حدوث أمر ما فإن ذلك يكون حقيقة مؤكدة لا شبهة فيها ولا التواء، وإذا انفرد التاريخ الخبري بحدوث أمر ما فإنه لا بد أن يوضع تحت مجهر الفحص والدراسة المستوعبة ليتوصل إلى رجحان وقوعه أو نفي وقوعه .. أما إذا انفرد الشاهد الأثري بحدوث أمر ما فإن الغالب أن يكون حدوثه صحيحاً ، لأنه تصوير صامت لا يتأثر غالباً بالدعاية أو الملق.."[1] .

والحق أننا نملك نماذج عديدة ومتنوعة يمكن على ضوئها إثبات مدى تطابق واتفاق النصوص والروايات التاريخية مع النقوش الآثارية.

ولما كان المقام لا يتسع لحصر كافة النماذج ؛ لأن ذلك يحتاج إلى عدة مجلدات ، ولذلك حسبنا أن نستشهد ببعض نماذج تمثل كافة جوانب التاريخ الإسلامي من عصور وأقطار مختلفة.

وسوف نتتبع تلك النماذج المختارة في العديد من الأقطار العربية والإسلامية على ضوء طبيعة الموضوعات التي تمثلها ، على أن نراعي الترتيب الزمني والتسلسل التاريخي عند تناول كل موضوع منها.

أولاً - الجزيرة العربية :

أ - الحجاز :

١ - من التاريخ الاقتصادي في العصر الأموي : ٤١ - ١٣٢هـ/ ٦٦١-٧٤٩م

شهدت الجزيرة العربية عامة والحجاز خاصة إبان العصر الأموي نشاطًا

(١) الأنصاري، عبد القدوس، بين التاريخ والآثار، جدة، مطابع الروضة، ط ٣، (١٣٩٧هـ/١٩٧٧م)، ص١٢.

وازدهارا حضاريًا على نطاق واسع، وذلك بفضل الاهتمام الذي وجهه خلفاء بني أمية وولاتهم، وقد أكدت الأدلة الآثارية الباقية حقيقة ذلك.

وحسبنا أن نشير هنا إلى ما ورد في بعض المصادر التاريخية من إشارات يستدل منها على مدى حرص خلفاء بني أمية وولاتهم على تشجيع الزراعة، وبذل المحاولات الجادة لنموها وتحسينها عن طريق حفر الآبار والعيون وشق الطرق وإقامة السدود في العديد من المدن الحجازية ، مثل مكة والطائف والمدينة المنورة وخيبر والعقيق[1]، وهو الأمر الذي نتج عنه في النهاية توسع الرقعة الزراعية وزيادة الإقطاعات والملكيات الزراعية خاصة[2] .

والحق أن الأدلة المادية المستمدة من المصادر الآثارية عامة والنقوش خاصة تثبت وتؤكد حقيقة ما ورد في تلك المصادر ؛ إذ عثر على عدة سدود ترجع إلى العصر الأموي[3]، ومنها سدان للخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان (٤١ -٦٠هـ / ٦٦١ - ٦٧٩م) أحدهما بالمدينة المنورة ويعرف بسد

(١) الأصفهاني، الحسن بن عبد الله، ت ق ٣هـ/٩م ، بلاد العرب ، تحقيق حمد الجاسر وصالح العلي، الرياض، دار اليمامة، (١٩٦٨م)، ص٤٠١ ، الحربي، المناسك، ص ٣٣٠، ٤٥٦ ، السمهودي، وفاء الوفا، جـ٣، ص ١٠٤٤، ١٠٥٥، ١٠٧٢، جـ٤، ص ١٢٣١، ١٢٣٩، ١٣٠٩.

(٢) السيف، عبد الله محمد، الحياة الاقتصادية والاجتماعية في نجد والحجاز في العصر الأموي، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط ٢، (١٤٠٣هـ/١٩٨٣م)، ص ص٤٧-٥٨.

(٣) الراشد، سعد، الآثار الإسلامية في الجزيرة العربية في عصر الرسول والخلفاء الراشدين، مجلة العصور، مج٣، جـ٢، (ذو القعدة ١٤٠٨هـ/يوليو ١٩٨٨م) ص٢١٠-٢١٢؛ خان، مجيد، المغنم، على سدود أثرية في منطقة الطائف، مجلة أطلال، العدد٦، الرياض، (١٤٠٢هـ/١٩٨٢م) ص١٢٥-١٣٥ ؛ الحارثي، مدخل، ص٢٠-٨٣؛ سد من العصر الأموي في وادي داماء ببني الحارث بالطائف، دراسة أثرية مقارنة، مجلة علم الآثار والتراث، العدد الأول، الرياض، الجمعية السعودية للدراسات الأثرية، ص ٦٦-٩٨. (قيد النشر).

Kay, s., Some Ancient Dams of the Hejaz, Peroceedings of the Seminar for Arabian Studies, vol, 8, (1978),pp. 74-80.

الخنق[1] والآخر بالطائف ويعرف بسد سيسد [2]، ويرجع تاريخ إنشاء هذا السد الأخير إلى عام ٥٨هـ/٦٧٧م كما سنشير فيما بعد.

ومنها سدود الحجاج بن يوسف الثقفي (ت ٥٩هـ/٧١٣م) التي لا تزال قائمة إلى اليوم في المعيصم بمكة المكرمة [3].

أما عن سد معاوية المعروف بسد سيسد بالطائف فهو يتضمن النقش الإنشائي له بصيغة "هذا السد لعبد الله معوية / أمير المؤمنين بنية عبد الله بن صخر/ بإذن الله لسنة ثمن وخمسين ١ / للهم اغفر لعبد الله معوية ١ / أمير المؤمنين وثبته وانصره ومتع ١/المؤمنين به كتب عمرو بن حباب (جناب أو خباب) (شكل ١، لوحة ١-٢) .

ولهذا السد قيمته الآثارية [4] والتاريخية ، وهذه الأخيرة هي ما يعنينا

---

(١) المعيقل، خليل، وآخرون، المواقع الأثرية في الجزيرة العربية، ضمن الموسوعة العربية العالمية، المجلد٤٢، الرياض، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، ط٢، (١٤١٩هـ/١٩٩٩م)، ص٣٥٠.

(٢) ماهر، سعاد، الطائف وج وما بها من آثار النبي صلى الله عليه وسلم والمساجد الأثرية، الدارة، العدد٣، السنة٦، (جمادى الثاني ١٤٠١هـ/أبريل ١٩٨١م)، ص٣٩-٤٠ ، الفعر، تطور الكتابات والنقوش، ص١٦٧ ، الحارثي، النقوش العربية، ص٧٩، التل، تطور، ص٢٩ . ٣٣ ، الصقار، سامي خماس، سد معاوية في الطائف ، دراسة وتعليق، الدارة، العدد٢، السنة ١١، (المحرم ١٤٠٦هـ/ سبتمبر ١٩٨٥م)، ص٢٣-٤٤ (ومن الملاحظ أن الصقار قد ركز على دراسة نقطتين رئيستين هما تاريخ الكشف عن السد وهوية مكتشفيه من جهة وشخصية بناته من جهة ثانية) .

(٣) الأزرقي، أخبار مكة، جـ٢، ص١٨٢؛ الفاكهي، تاريخ مكة، جـ٤، ص٢١٠، ٧٦١، ٧١٠ هامش١، جـ٥، لوحات ٧٣-٦٤.

(٤) Miles, G, Early ISlamic Inscriptions Near Taif in the Hijaz, Journal of Near Eastern Studies, vol, 7 New York, (1948), pp. 236-242; Grohmans, Expedition, pp. 56-58.

المنجد، دراسات، ص١٠١-١٠٣، الفعر، تطور الكتابات والنقوش ، ص١٧٠-١٧٣، رمضان؛ حسين، الإعجام ، ص ٢٣٧-٢٤١.

في هذا المقام، فإنه على الرغم من أن هذا السد لم يرد له ذكر - كغيره من السدود الأموية المشار إليها - في المصادر التاريخية - المعروفة لدينا حتى الآن - إلا أنه يعد دليلاً ماديًا باقيًا يثبت ويؤكد حقيقة ما أوردته بعض المصادر من أنه كانت للخليفة معاوية بن أبي سفيان إقطاعات وأملاك بالطائف[1]، وهو الأمر الذي يفسر لنا بناء ذلك السد هناك .

٢ - العناية بالطرق ومرافقها :

أ - العصر العباسي :

استمرت العناية بالطرق ومرافقها إبان العصر العباسي، ومن أهمها بطبيعة الحال طرق الحج ، ولا سيما طريق الحج من الكوفة إلى مكة وهو الذي اشتهر باسم درب زبيدة - نسبة إلى السيدة زبيدة زوجة الخليفة هارون الرشيد والتي كانت تكنى بأم جعفر وكانت وفاتها في عام ٢١٦هـ/٨٣٢م - ؛ حيث أشارت المصادر التاريخية إلى اهتمام خلفاء بني العباس وبعض نسائهم زيادة على ولاتهم بعمارة الطريق وإصلاحه وتوسيعه وتزويده بالمرافق الهامة كالآبار والبرك والأحواض والمنارات والأعلام والأميال، زيادة على الاستراحات والقصور والحصون وغير ذلك مما هو مبسوط في تلك المصادر[2] من جهة وتؤكده الأدلة الآثارية الباقية [3] من جهة أخرى.

(١) اليعقوبي، تاريخ، جـ٢، ص٢٥٠، البلاذري، فتوح البلدان، جـ١، تحقيق المنجد، ص٦٦؛ ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، جـ١، تحقيق طه الزيني، القاهرة (١٩٦٧م)، ص١٧٦ ، الفعر، تطور الكتابات والنقوش، ص١٦٨-١٦٩.

(٢) الطبري، تاريخ الرسل، جـ٧، ص٤٦٥، جـ٨، ص١٣٦؛ ابن الجوزي، المنتظم، جـ٨، ص٢٤٧ ، ابن الأثير، الكامل، مج٥، ص٢٤٠، مجهول، العيون والحدائق، جـ٣، ص٢١١، ابوالفدا، المختصر، حـ٢، ص٨، ابن خلدون، العبر، مج٣، ص٢٠٩، القلقشندي، مآثر الإنافة، جـ١، ص١٨٦، السيوطي، تاريخ الخلفاء ، ص٢٧٣.

(٣) الراشد، درب زبيدة، ص٤٧-٤٦٥.

غير أن ما يعنينا في هذا المقام هو الربط بين بعض النقوش الآثارية وبين ما ورد في المصادر المختلفة، ومن ذلك ما أشارت إليه تلك المصادر من اهتمام بعض خلفاء بني العباس الأوائل بعمارة طريق الحج ووضع العلامات التي توضح مسار الطريق كالأعلام والمنارات والأميال - الصُوى - ومنهم الخليفة أبو العباس السفاح (١٣٢-١٣٦هـ/٧٤٩-٧٥٣م) وقد أمر بوضع المنار والأميال من الكوفة إلى مكة في عام ١٣٤هـ/٧٥١م .

والخليفة أبو جعفر المنصور (١٣٦-١٥٨هـ/٧٥٣-٧٧٤م) وقد أمر بإنشاء منازل على طول الطريق، والخليفة محمد المهدي (١٥٨-١٦٩هـ/٧٧٤-٧٨٥م) وقد أمر باتخاذ المصانع في كل منهل وإنشاء المنازل وتجديد الأميال والبرك وحفر الركايا مع المصانع منذ عام ١٦١هـ/٧٧٧م وولي ذلك كله يقطين بن موسى الذي ظل مسؤولاً عن الطريق حتى عام ١٧١هـ/٧٨٧م[١]. وتؤكد الأدلة المادية المستمدة من النقوش الآثارية حقيقة ما أوردته هذه المصادر عن تلك الإصلاحات ؛ إذ تم العثور على أربعة أحجار ميلية - صُوى - ذات علاقة مباشرة بطريق الحج من الكوفة إلى مكة المكرمة[٢] (شكل رقم٢)، وقد رجح الراشد أن كل من الميلين الأول والرابع (شكل رقم ٣)، ربما يعودان إلى عهد كل من الخليفتين أبو العباس السفاح أو أبو جعفر المنصور والحجر الميلي الثاني إلى عهد الخليفة المهدي[٣]. (شكل رقم ٤).

---

(١) الطبري، تاريخ الرسل، جـ٧، ص٤٦٥، ابن الأثير، الكامل، مج٥، ص٤٢٠، ابو الفدا، المختصر، جـ٢، ص٨، القلقشندي، مآثر الإنافة، جـ١، ص١٨٦؛ السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٢٧٣.

(٢) الراشد، أربعة أحجار ميلية من العصر العباسي، ص ١٢٣-١٤٢ (وقد أعيد نشر هذا البحث ضمن كتاب درب زبيدة لنفس المؤلف ، ص ٢٣٤-٢٥٢).

(٣) الراشد، أربعة أحجار، ص ١٢٤-١٢٥ ، ١٣٤.

أما الحجر الميلي الثالث (شكل رقم ٥) فيتضمن اسم الخليفة المهدي ويقطين بن موسى (ت ١٨٦هـ/٨٠٢م) الذي عهد إليه المهدي بمهمة إجراء هذه الإصلاحات كما سبق القول، وهو ما يستدل من صيغة نقش هذا الحجر ومضمونها "هذا ما أمر به ١/لمهدي عبد الله/ عبد الله أمير١/ المؤمنين على يدي/ يقطين بن موسى/ هذا على اثني/ عشر ميلاً من بريد/ أسود العشار [يا] ت"[١] .

ب - العصر العثماني :

استمرت العناية بطرق الحج إبان العصر العثماني، ولا سيما طريق الحج المصري والشامي، غير أن ما يعنينا في هذا المقام هو الربط بين أحد النقوش الآثارية المكتشفة حديثًا، وبين ما أورده الجزيري بخصوص عمارة قلعة المويلح وحفر عدد من الآبار هناك ؛ حيث أشار إلى أن مشروع بناء تلك القلعة والآبار كان من المتجددات في مناهل درب الحاج، وقد أمر بإنشاء القلعة والي مصر يومئذ ، وهو علي باشا (٩٦٦-٩٦٧هـ/ ١٥٥٨-١٥٥٩م)، في عام ٩٦٧هـ/ ١٥٥٩م، وعهد بإنجاز هذه المهمة إلى الأمير قيت بن عبد الله الداودي فأتمها على خير وجه وأحسن حال، وقد وصف الجزيري القلعة، ثم أضاف قائلاً "واعتنى المعمار بحفر الآبار هناك فحفر قيت المذكور بئراً وجعلها وقفًا لمولانا (الخندكار) الأعظم، وبنى بئراً ثانية وجعلها وقفًا له، ثم لما توجه الأمير عثمان بن أزدمر باشا أميراً على الركب في تلك السنة - أي ٩٦٧هـ/١٥٥٩م - أمر ببناء بئر ثانية ففعل ذلك، ثم قبل عود الركب إلى المويلح وجدها فَرغَتْ - أي تم الانتهاء منها - فوقفها على المسلمين فتم بها خمسة آبار، وذكر لي - أي

(١) الراشد، أربعة أحجار، ص١٢٤، ١٣٠-١٣١.

للجزيري - قيت المعمار أنه يريد أن يحفر بئراً داخل القلعة فيصير هناك قديمًا وحديثًا ستة آبار وشربت من ماء المتجددات فرأيته عذبًا سائغا شرابه"[1].

والحق أن الأدلة المادية المستمدة من المصادر الآثارية عامة والنقوش خاصة تثبت وتؤيد حقيقة ما ذكره الجزيري - بوصفه شاهد عيان أولاً ومؤرخ ثانيًا - فالقلعة ما تزال باقية في حالة جيدة حتى اليوم[2] ، وينطبق تخطيطها مع وصف الجزيري، كما أن الآبار الستة ما تزال باقية أيضًا حيث إن القلعة تقع على بعد ٥٠٠م إلى الجنوب من بئرين مملوكيين أمر بإنشائهما الأمير الحاج آل ملك الجوكندار في عهد السلطان المملوكي الناصر محمد بن قلاوون (ت٧٤١هـ/ ١٣٤٠م) وقد وصفها الجزيري بأنها آبار قديمة حيث إنها تسبق الآبار العثمانية بما يزيد عن قرنين وربع القرن.

أما الآبار الأربعة التي أنشئت في عام ٩٦٧هـ/١٥٥٩م فما تزال هي الأخرى باقية فإحداهن تقع في فناء القلعة - وهو ما يتطابق مع قول الجزيري حين ذكر له قيت المعمار أنه يريد أن يحفر بئراً داخل القلعة كما سبق القول - والثلاث الباقيات يقعن في بطن الوادي إلى الشرق من القلعة، وفي طيّ إحدى

---

(١) الجزيري، عبدالقادر بن محمد ، ت ٩٧٧هـ/١٥٦٩م، الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة، جـ٢ ، تحقيق حمد الجاسر، الرياض، دار اليمامة، (١٩٨٣م)، ص١٣٧٩-١٣٨١.

(٢) تم الفراغ من بناء هذه القلعة في عام ٩٦٨هـ/ ١٥٦٠م كما يستدل من النقش الإنشائي المثبت بصدر مدخل القلعة ، غبان، علي، الآثار الإسلامية في شمال غرب المملكة، ص ٢٢٦-٢٣٨ شكل١٠٦؛ ولمزيد من التفاصيل عن عمارة القلعة وتخطيطها وعناصرها المختلفة انظر، عجيمي، هشام، قلعة المويلح، دراسة معمارية حضارية، رسالة ماجستير، غير منشورة، مكة المكرمة ، قسم الحضارة والنظم الإسلامية ، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى، (١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م)، ص٢٩-٥٣، ٧١-١١٤.

هذه الآبار الثلاثة يوجد نقش إنشائي يؤرخ لعمارة ذلك البئر، وهو بئر الأمير عثمان بن أزدمر باشا - وهو يتطابق مع قول الجزيري من أن الأمير عثمان بن أزدمر باشا عندما كان أميراً على ركب الحاج في عام ٩٦٧هـ/١٥٥٩م أمر بإنشاء بئر ثالثة، وقد تم الانتهاء منها قبل عودة الركب إلى المويلح - ويتضمن هذا النقش أربعة أسطر متوازية نفذت بخط الثلث المركب، (شكل رقم ٦) غير أن ما يعنينا منها هو السطر الرابع والأخير الذي يشير إلى إنشاء البئر وتاريخ الفراغ منه وذلك بصيغة "... أنشأ هذا البير المبارك المقر الفخري عثمان أغا أحد أمراء السناجق وأمير الحاج الشريف بالديار المصرية نجل مولانا أزدمر باشاه في سلخ شهر الحجة سنة ٩٦٧"[1].

هذا ومن اللافت للنظر أن بئر الأمير عثمان، والتي تعرف ببئر الورّادة، هي البئر الوحيدة بين الآبار العثمانية الأخرى المشار إليها، التي تحوي نقشها الإنشائي، ونحن نتفق مع ما ذكره غبان حول هذا الموضوع بقوله "ولعل الأمير عثمان بن ازدمر طلب ذلك بنفسه من المشرف على العمارة، لكي يُعَرف أن إنشاء هذه البئر عمل معماري مستقل عن مشروع بناء القلعة والآبار الثلاثة الأخرى، فقد كان عثمان بن أزدمر باشا محبًّاً للشهرة والظهور، وقد وصل سريعًا إلى قمة السلم العسكري في عهده بفضل مكانة أبيه، ومثله يحرص على إشهار عمله الطيب"[2].

(١) غبان، نقش غير منشور من بلدة المويلح (مؤرخ بعام ٩٦٧هـ/ ١٥٦٠م)، ضمن كتاب دراسات في الآثار (الكتاب الأول) المشار إليه سابقًا، ص ص٣١٣، ٣١٦، أشكال ٤-٩ ، الآثار الإسلامية في شمال غرب المملكة ، ص٢٣٥-٢٣٦، شكل١٠٤.

(٢) غبان، نقش غير منشور ، ص ٣١٩.

ب - اليمن :

١ - من التاريخ السياسي في العصر العباسي الثاني : ٢٣٢-٣٣٤هـ/ ٨٤٦-٩٤٥م :

رصدت المصادر التاريخية ما شهدته اليمن من أحداث واضطرابات وقلاقل في الربع الأخير من القرن ٣هـ/٩م، غير أن ما يعنينا في هذا المقام هو أن قيام دولة الأئمة الزيدية كان من أهم ما تمخضت عنه هذه الأحداث وتلك الاضطرابات، وقد تتبعت المصادر الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين - وهو مؤسس هذه الدولة - منذ خروجه إلى بلاد اليمن عام ٢٨٠هـ/٨٩٣م وعودته إليها مرة ثانية في عام ٢٨٤هـ/٨٩٧م وما تبع ذلك من تأسيس الدولة في صعدة ومحاولة توسيع رقعتها في صنعاء وغيرها، وهو ما ورد في المصادر المختلفة على نحو مفصل[1] ، وعلى الرغم من أن الإمام يحيى قد فشل، حتى وفاته في عام ٢٩٨هـ/ ٩١٠م، في توحيد بلاد اليمن تحت زعامته، إلا أنه نجح في تأسيس أول دولة مستقلة استقلالاً تامًا عن الخلافة العباسية، كما أرسى مبادئ المذهب الزيدي، وضرب السكة باسمه كأبرز مظهر من مظاهر هذا الاستقلال، وتؤكد الأدلة المادية المستمدة من النقوش الآثارية وبخصة نقوش

---

(١) ابن عبد المجيد، تاريخ اليمن المسمى بهجة الزمن ، ص٣٤-٣٦؛ الخزرجي، العسجد المسبوك ، ص٣٥-٣٦، ابن الحسين، غاية الأماني، مج١، ص١٦٥-١٦٨، ١٧٩-٢٠٢، تعليقات الأكوع في كتاب قرة العيون لابن الديبع، مج٢ ، ص١٦٨-١٧٤؛ العلوي ، علي بن محمد بن عبد الله، سيرة الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين، تحقيق سهيل زكار، دمشق، دار الفكر (١٩٧٢م) ص ١٠-٩٠؛ الفقي، اليمن في ظل الإسلام، ص ص١٠٤-١١٠؛ ماضي، محمد عبد الله، دولة اليمن الزيدية، نشأتها - تطورها - علاقاتها ، المجلة التاريخية المصرية، المجلد٣، العدد الأول، (مايو ١٩٥٠م)، ص٢٣-٣٢.

السكة حقيقة ما رددته المصادر التاريخية، إذ أنه ما تزال توجد عدة دنانير ضربت في كل من صعدة وصنعاء محفوظة في عدد من المتاحف العربية والإسلامية والعالمية وأقدم المعروف منها، حتى الآن، مؤرخ بعام ٢٨٨هـ/ ٩٠٠م ضرب صنعاء، ويلي ذلك نماذج أخرى مؤرخة بعام ٢٩٣هـ وعام ٢٩٦هـ/٩٠٨م وعام ٢٩٨هـ/ ٩١٠م[1] (شكلا رقم ٨ - ٩).

وتتضمن نقوش هذه الدنانير في مركز الوجه شهادة التوحيد واسم الرسول ﷺ بصيغة (محمد رسول الله) أو شهادة التوحيد وعبارة "الهادي إلى الحق / أمير المؤمنين"، وفي الهامش الداخلي للوجه بسم الله ومكان وتاريخ الضرب سواء صعده أو صنعاء، أما الهامش الخارجي للوجه فيتضمن آية قرآنية شريفة نصها "لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله" وهناك نماذج أخرى تقتصر على الهامش الداخلي فحسب وهو المتضمن البسملة غير الكاملة ومكان وتاريخ الضرب .

أما مركز الظهر فيتضمن الصيغة التالية "الهادي إلى/ الحق أمير/ المؤمنين/ ابن رسول الله"، ويوجد دينار من هذا الطراز بالمتحف البريطاني نقشت بمركز ظهره سورة الإخلاص كاملة، واقتصر الظهر على هامش واحد يتضمن إما

(١) فهمي، دنانير يمنية نادرة ضرب صعدة، ضمن بحث بعنوان : دراسة لبعض التحف الإسلامية - ٢ -، مجلة كلية الآداب ، مج٢٢ ، جـ١ ، مايو ١٩٦٠م ، مطبعة جامعة القاهرة (١٩٦٤م) ، ص١٨٤-١٨٧ ، العش ، النقود العربية الإسلامية المحفوظة، جـ١، ص٤٠، المسكوكات في الحضارة العربية الإسلامية، ص٢١٢، الراشد، دنانير عباسية نادرة ضرب صنعاء، محفوظة في متحف الآثار - كلية الآداب - جامعة الملك سعود، مجلة جامعة الملك سعود، المجلد الثالث، الآداب (٢) ، الرياض (١٤١١هـ/١٩٩١م) ، ص٥٦٩-٥٧٤؛ الجابر، النقود العربية الإسلامية في متحف قطر، جـ٢ ، ص٣٢٢-٣٢٤ ؛ يوسف ، نقود الخارجين ، ص١٢٣-١٣٣.

"محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله" أو "جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا وننزل من القرآن ما هو شفاء".

وعلى ضوء هذه النقوش يتضح أن الإمام يحيى بن الحسين قد تلقب بأمير المؤمنين، وهو بذلك لم يكتف بالخروج عن الخلافة العباسية، بل انتزع حق الخليفة العباسي، ونصب نفسه أميراً للمؤمنين، وأثبت ذلك على السكة وهو ما لم يجرؤ عليه أحد قبله على كثرة الخارجين على الخلافة العباسية فإنهم ، وإن كانوا قد أغفلوا ذكر أسماء الخلفاء ولم يعترفوا بسلطتهم إلا أنهم لم ينصبوا أنفسهم خلفاء ولم يتلقبوا بلقب أمير المؤمنين ؛ وعلى ذلك يكون الإمام الهادي إلى الحق هو أول من أسس خلافة ثانية في العالم الإسلامي تنافس الخلافة العباسية، وسبق بذلك الفاطميين الذين أعلنوا قيام خلافتهم بالمغرب عام ٢٩٧هـ/٩٠٩م.

كما تلقب الإمام يحيى بلقب ابن رسول الله وهو يحاول بذلك التأكيد على أحقيته بالخلافة ؛ لأنه من أحفاد الرسول ﷺ ، وهذا النسب الطاهر الشريف يجعله أولى من بني العمومة – أي بني العباس – بالخلافة[1].

٢– من التاريخ العمراني في العصر الأيوبي :

أشار العرشاني في صدر كتابه الاختصاص إلى أن القصد والغرض منه هو ذكر تجديد عمارة الجبانة التي هي مصلى العيدين في مقدم مدينة صنعاء في الحديبية منها، وعمارة المنارتين اللتين في المسجد الجامع – أي جامع صنعاء الكبير – وعمارة مسجد معاذ بن جبل صاحب رسول الله ﷺ ... وذكر من

(١) الراشد ، دنانير عباسية ، ص٥٧٢-٥٧٣، الجابر، النقود ، ص٣٢٣-٤٢٣، يوسف ، نقود الخارجين، ص١٢٥-١٢٦.

جدد عمارة ذلك واسمه ونسبه وذكر بعض أخباره".

ويؤكد العرشاني ذلك في موضع أخر بقوله "وليس الغرض إلا ذكر تجديد العمارة التي حضرتها ونبهت عليها، وذكر من عمرها بفضل هذه البقاع فخصه الله تعالى وأرشده وهداه وألهمه فعل الخير، وكنت أنا المنبه لذلك والذاكر لفضله وهو المنفق على ذلك من ماله والفاعل لعمارة ذلك ..."[1]. ويتضح من ذلك النص أن العرشاني كان هو الباعث على إجراء هذه العمارة التي أنفق عليها الأمير وردسار من ماله الخاص، وبعد ذلك تحدث العرشاني عن تفاصيل هذه العمارة، حيث أشار إلى أنه قد ذكر فضل هذه الجبانة للأمير الأجل ملك الأكراد علم الدين وردسار، وفضل المسجد عندها، وفضل المسجد الجامع، فما كان من الأمير إلا أن سارع لعمارتها ونشط إلى إحيائها التماساً منه لطلب الثواب من الله تعالى، وفي ٢ شوال ٦٠٢هـ/١٢٠٥م أمر الأمير بنقض المصلى والإنفاق على عمارته نقداً فنقض إلى أساسه، ولم يكتف الأمير بالإنفاق فحسب، بل كان يذهب إلى المصلى في كل يوم وأحيانًا كان يضرب خيامه هناك ويباشر العمارة بنفسه ويرتبها، ويورد العرشاني بعد ذلك تفاصيل عمارة الجبانة ومفرداتها المختلفة زيادة على نقوشها الزخرفية والكتابية ويختم حديثه قائلاً "وكان كمال عمارتها في اليوم التاسع من شهر ذي الحجة وهو يوم الاثنين يوم عرفة في آخر اليوم وصلى فيها العيد وهي كاملة مكملة ..."[2] ، أي أن عمارتها قد استغرقت نحو سبعة وستين يومًا.

كذلك أمر الأمير وردسار بحفر البئر التي تلي الجبانة وإحداثها وبنيت

---

(١) العرشاني، الاختصاص ، ص٤٧١، ٤٧٣.

(٢) العرشاني، الاختصاص ، ص٥٠٤-٥٠٧.

وأحكم طيها وعمل الدكانين اللتين بين البئر والبركة وبناء الدار التي تلي البئر برسم الساكن فيها لحفظ الضيعة وحفظ الدواب المرصدة للضيعة ، ثم إنه أمر بإحياء الضيعة التي حواليها ووقفها على مصالح الجبانة وعلى من يسكن فيها من الفقراء والمساكين المنقطعين وأوى إليها من أبناء السبيل[١]. ويضيف العرشاني فيذكر "ثم انتدب - أي الأمير وردسار - لعمارة المنارتين اللتين في المسجد الجامع بصنعاء بتاريخ منتصف شهر ذي الحجة سنة اثنتين وستمائة، وكانت المنارة الغربية قد انتقضت وتغير أسفلها إلى سقف المسجد ولم يمكن تعليقها ، فأمر الأمير بنقضها ليعمرها ، والمنارة الشرقية كانت قد نقضت في مدة متقدمة وبني منها الشيئ اليسير في مدة طويلة تكون ثماني سنين..."[٢].

وبعد ذلك يصف العرشاني عمارة المئذنة الشرقية، وما استحدث فيها من الدرابزين بأمر الأمير وردسار وهو ما لم يسبق إليه في منارات صنعاء على حد قول العرشاني، ويشير العرشاني بعد ذلك إلى النقش الإنشائي للمنارة الذي يتضمن اسم الأمير وردسار وتاريخ الفراغ من عمارتها في يوم الثلاثاء الموافق ٧ صفر ٦٠٣هـ/١٢٠٦م، وقد وضع هذا النقش في شرقي المنارة.

أما المنارة الغربية فقد أشار العرشاني إلى عمارتها ووصفها وتاريخ الفراغ من عمارتها في "يوم الاثنين لست عشرة ليلة خلت من شهر رمضان من شهور سنة ثلاث وستمائة"، ويضيف العرشاني فيذكر "وكتب في حجر من مرمر اسم هذا الأمير وأدخل في بناء الشرقية منها في الحجر من جملة البناء والتأليف"[٣].

(١) العرشاني، الاختصاص ، ص٥٠٩-٥١٠.
(٢) العرشاني، الاختصاص ، ص٥١٩-٥٢٠.
(٣) العرشاني، الاختصاص ، ص٥٢٠-٥٢٢.

والحق أن الأدلة المادية المستمدة من النقوش الآثارية وبخاصة النقوش الإنشائية تؤيد ما ذكره العرشاني بل وتتطابق معه، ومنها النقش الإنشائي للمنارة الغربية والذي لا يزال باقيًا بالجدار الشرقي لقاعدة المئذنة، (شكل رقم ٩) وقد نفذ هذا النقش على لوح رخامي مستطيل الشكل وهو يتكون من إحدى وعشرين سطراً بصيغة "بسم الله الرحمن الرحيم/ المسجد الجامع بصنعا أمر ببنائه/ رسول الله صلى الله عليه/ قبل مسجد الجند وأعيدت عما/ رة هذه المنارة الغربية من أسا/ سها إلى علوها بأمر الأمير الأجل/ الأعز المختار أمير الأمراء ملك/ الأكراد مصطفى أمير المو [منين]/ علم الدين وردسار بن بنامي/ الشاكاني أنفق عليها من/ ماله في سنة ثلاث وستماية/ بعد أن كملت عمارة الجبانة/ مصلى العيدين في مقدم صنعا/ ومصلى العيدين وضع على عهد/ النبي صلى الله عليه وأعيدت/ عمارته من أساسه إلى علو/ه واحتفرت البئر التي فيه وعمر/ ت هي وضيعتها عمارة أخرى/ بأمر الأمير علم الدين ورد/سار انفق عليه من ماله ووقف/ الضيعة والبئر على مصالح الجبانة"[1]. (شكل رقم ١٠) .

ومنها النقش الإنشائي للمنارة الشرقية والذي لم يتبق منه سوى سبعة

(١) خليفة، النصوص التأسيسية ، ص٢٦٥ -٢٦٦، شكل ١٢، ومما له دلالته في هذا الصدد أن الحجري ومن نقل عنه قام بنشر هذا النقش ولكنه أغفل بعض نصوصه ، الحجري، الحاج محمد بن احمد، مساجد صنعاء عامرها وموفيها، صنعاء مطبعة وزارة المعارف اليمنية (١٣٦١هـ/١٩٤٢م)، ص٢٧-٢٨، الأكوع، القاضي إسماعيل بن علي، جامع صنعاء أبرز معالم الحضارة الإسلامية في اليمن، ضمن كتاب، مصاحف صنعاء، الكويت، دار الآثار الإسلامية (١٩٨٥م)، ص١٤، لوحة ٤.
Serjeant, R.B, and lewcock, R., SAN'A, An Arabian slamic city, London, (1983), pp. 348-349.

أسطر، وقد نفذ هذا النقش أيضًا على لوح رخامي مستطيل الشكل لا يزال باقيًا بموضعه بالجدار الشرقي لقاعدة المئذنة أسفل مستوى السقف.

ويتضمن ما تبقى من هذا النقش الصيغة التالية ".. عمارة هذه/ المنارة الأمير الأجل/ الكبير الأعز المختار ملك/ الأكراد مصطفى أمير/ [...] ومير (كذا) علم الدين ورد/ سار بن بنامي الشاكاني/ انفق عليها من ماله لو [...] .."[1].

وبعد فإن مطابقة ما ورد في كل من هذين النقشين وبصفة خاصة نقش المنارة الغربية، مع ما أورده العرشاني - بوصفه الباعث لهذه العمارة أولاً وشاهد عيان ومؤرخ ثانيًا - يكفي لإثبات تلك العلاقة الوثيقة القائمة بين التاريخ والآثار وأنه لا غنى لأحدهما عن الآخر إذا ما أردنا أن نقدم صورة نقية أقرب ما تكون إلى الحق والواقع.

٣- من التاريخ الاقتصادي في عصر بني رسول : (٦٢٦-٨٥٨هـ/ ١٢٢٨-١٤٥٤م)

أشارت المصادر التاريخية إلى أنه في عام ٧٣٦هـ/ ١٣٣٥م ظهر الدرهم الجديد[2] الذي أمر بضربه السلطان الرسولي الملك المجاهد علي بن المؤيد داود

(١) خليفة، النصوص التأسيسية ، ص٢٦٥؛

Serjeant, SAN'A, p. 343, pl. 18. 51, p. 348.

(٢) اختلف المؤرخون حول اسم هذا الدرهم الجديد فقيل أنه الروباصي، الرباصي، الروباحي، الراحي، الرياحي، الرواضي، الروباصي، الرياضي؛ الخزرجي، العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية، جـ٢، تحقيق محمد بسيوني عسل، مصر، مطبعة الهلال بالفجالة، (١٣٣٢هـ/١٩١٤م)، ص٦٥ حاشية ١؛ تحقيق محمد بن علي الأكوع الحوالي، صنعاء ، مركز الدراسات والبحوث اليمني، بيروت، دار الآداب، ط٢، (١٤٠٣هـ/١٩٨٣م)، ص٦١ حاشية١، العسجد السبوك فيمن تولى اليمن من الملوك، صورة مخطوط، صنعاء، وزارة الإعلام اليمنية، (١٩٨١م)، ص٣٧٦؛ ابن المقرئ، إسماعيل بن أبي بكر، ت ٨٣٧هـ/١٤٣٣م عنوان الشرف الوافي في علم الفقه والعروض والتاريخ والنحو ==

(٧٢١-٧٦٤هـ/ ١٣٢١-١٣٦٢م)، وقد أصدر السلطان أوامره بفرض التعامل به، وأن لا يؤخذ من الرعية والتجار في جميع أموال الخراج إلا بهذا الدرهم الجديد، فما كان من الرعية إلا أن تضررت من جراء ذلك. وكانت العادة قد جرت - قبل عهد السلطان الملك المجاهد - أن يطلب من الرعية ما يتوجب عليهم من الخراج في الغلة على حكم سعر الصرف في شهر ذي الحجة من العام السابق، وبناءً عليه فقد كان تحصيل خراج عام ٧٣٦هـ/ ١٣٣٥م على سعر صرف شهر ذي الحجة للعام السابق وكان السعر في هذا العام الأخير - وهو ٧٣٥هـ/ ١٣٣٤م - مرتفعًا ارتفاعاً عظيمًا، وفي المقابل حدث العكس في العام الجديد - وهو ٧٣٦هـ/ ١٣٣٥م - حيث انحطت الأسعار انحطاطاً كليًا مع

== والقوافي، تحقيق عبد الله الأنصاري، مكتبة جدة، ط٥، (١٩٨٦م)، ص١٦٩، ابن الحسين، غاية الأماني، جـ٢، ص٥١٣، ابن الديبع، بغية المستفيد، ص٩٢؛ ومن الواضح أن هناك تصحيف قد حدث، ولذلك اقترح خليفة أن الاسم الصحيح للدرهم هو الرباعي، ولكن دون أن يقدم ما يؤيد تلك التسمية، مما دفع الطميحي إلى القول "ولعل الذي دفع الباحث - أي خليفة - إلى اعتقاد صحة لفظ أو رسم الرباعي أن هناك نقوداً سادت لمدة يسيرة من الزمن في التاريخ الإسلامي كانت تسمى الرباعيات وعليها بنى قياسه، ولعل لتشابه الأسماء القائم دور في ذلك". خليفة، طراز المسكوكات الرسولية، الاكليل، العدد٢، السنة١٧، صنعاء، وزارة الإعلام والثقافة، (صيف ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م)، ص٤٩، حاشية٣٦ ، الطميحي، فيصل علي، الدرهم الرسولي الجديد المضروب سنة ٧٣٦هـ، عالم المخطوطات والنوادر، المجلد الأول، العدد٢، الرياض، عالم الكتب، (رجب ، ذو الحجة ١٤١٧هـ/يناير - يونيو ١٩٩٧م) ، ص٤٩٩-٥٠٠؛ أما الطميحي فيرى أن الاسم الصحيح هو الرويجي اعتماداً على ما وجده في معاجم اللغة العربية - مثل لسان العرب والقاموس المحيط وتاج العروس - من وجود نوع من الدراهم بذلك الاسم - أي الرويجي أو الريجي - وأنها كانت تمتاز بخفة الوزن وهو ما يتوافق مع صفات الدرهم الرسولي الجديد دون غيره من الدراهم الرسولية الأخرى، زيادة على تشابه رسم الأسماء الملاحظ بشدة بين اسم الدرهم الرويجي وبين الأسماء الواردة في المصادر التاريخية على الرغم من التصحيف ، الطميحي، الدرهم الرسولي الجديد، ص٥٠٠-٥٠١.

ظهور الدرهم الجديد، وهو الأمر الذي تسبب عنه حدوث ضرر عظيم بالرعية، فقد انكشفت أحوالهم وهربت طائفة منهم، كما تركت الرعية في وادي زبيد الحرث وتفرقوا في أنحاء البلاد ولم يعمر منهم إلا قليل عجزوا عن الحرث لقلتهم[1].

وكان من جراء ذلك أن أمر السلطان الملك المجاهد بتغيير طريقة تحصيل الخراج المشار إليها، وقد تمثلت الطريقة الجديدة في نظام النواصف الذي يقتضي أن يقسم كل شهر من شهور السنة إلى نصفين متساويين ويؤخذ من كل نصف شهر أدنى سعر على الإطلاق، وهو الأمر الذي جعل جباية الخراج أكثر يسراً وسهولة عن ذي قبل، وبطبيعة الحال أكثر ملاءمة لحال الرعية، وقد عد ذلك الأمر - أي إجراء النواصف في جهات التهائم كلها - من حسنات ومآثر الملك المجاهد التي تحسب له والتي لم يسبقه إليها أحد[2]. وقد ترتب على حدوث ذلك الإصلاح استقرار الأوضاع عامة، بدليل أن المصادر التاريخية لم تذكر شيئًا عن الدرهم الجديد مما يدل على أنه استقر على وضع رضي به الجميع، كرد فعل مباشر لذلك الإصلاح[3]، وهو ما لم يحدث حال ظهور هذا الدرهم عام ٧٣٦هـ/ ١٣٣٥م كما سبق القول .

(١) الخزرحي، العقود اللؤلؤية، جـ٢، تحقيق محمد بسيوني، ص٦٥-٦٦، تحقيق الأكوع، ص٦١-٦٢، العسجد المسبوك ، ص٣٧٦، ابن المقرئ، الشرف الوافي، ص١٦٩، ابن الحسين، غاية الأماني، جـ٢، ص٥١٣، ابن الديبع، بغية المستفيد، ص٩٢.

(٢) الخزرجي، العقود اللؤلؤية، جـ٢، تحقيق محمد بسيوني، ص٦٦-٦٧، تحقيق الأكوع، ص٦٢-٦٣، العسجد المسبوك، ص٣٧٦، ابن المقرئ، الشرف الوافي، ص١٦٩، بن الحسين، غاية الأماني، جـ٢، ص٥١٣، ابن الديبع، بغية المستفيد، ص٩٢.

(٣) الطميحي، الدرهم الرسولي الجديد، ص٥٠٢-٥٠٣.

والحق أن الأدلة المادية الباقية تؤيد حقيقة ما أوردته المصادر التاريخية إذ يوجد - حتى الآن - درهمان من هذا النوع الجديد الذي أشارت إليه المصادر أحدهما ضرب في مدينة المهجم[1] (شكل ١٠، لوحة ٢) والآخر ضرب بمدينة زبيد[2] وذلك في عام ٧٣٦هـ/١٣٣٥م ، أي : في نفس العام الذي أشارت المصادر التاريخية إلى ظهور الدرهم الجديد فيه .. وتتضمن نقوش هذين الدرهمين في الوجه البسملة كاملة وشهادة التوحيد والرسالة المحمدية وأسماء الخلفاء الراشدين الأربعة رضي الله عنهم، وفي الظهر اسم الملك المجاهد وألقابه واسم الخليفة العباسي المستعصم بالله وألقابه ومكان الضرب ، سواء المهجم أو زبيد، وتاريخ الضرب وهو ٧٣٦هـ/١٣٣٥م زيادة على نقش زخرفي في مركز الظهر عبارة عن سبع في درهم المهجم وطائر متوج ينشرح جناحيه في درهم زبيد .

ثانيًا - مصر :

١- من التاريخ الاقتصادي في العصر الأموي :٤١-١٣٢هـ/ ٦٦١-٧٤٩م

أشارت المصادر التاريخية إلى بعض الإجراءات الإحصائية والتفتيشية التي اتبعت في مصر الإسلامية إبان العصر الأموي لضبط عملية تحصيل الجزية من أهل الذمة، نظراً لما لوحظ من ازدياد حركات التهرب إلى القرى والأديرة، على الرغم من أن قيمة الجزية كانت تختلف من شخص إلى آخر ومن كورة إلى أخرى كما ثبت من أوراق البردي العربية، ومن هذه الإجراءات ما أمر به عبد العزيز بن مروان من إحصاء الرهبان في جميع الأديره ، حتى لا تكون

(١) الطحيمي، الدرهم الرسولي الجديد، ص٤٠٥، لوحة١، شكل١.

(٢) خليفة، طراز المسكوكات الرسولية، ص٤٩، لوحتا١٩-٢٠.

مكانًا لإيواء الهاربين من دفعها ، ودفع جزية مقدارها دينار واحد مع تطويق الذراع الأيسر بسوار معدني ينقش عليه تاريخ الإحصاء واسم الراهب واسم الدير الذي ينتمي إليه أو الكنيسة التي هو فيها.

ومنها ما فعله قرة بن شريك من حصر الأغراب في كل قرية ووسم كل منهم على جبهته ويديه وردهم إلى أوطانهم، ومنها ما فعله أسامة بن زيد التنوخي متولي الخراج من "وسم الرهبان بحلقة حديد فيها اسم الراهب واسم ديره وتاريخه ..." ومنها ما فعله حنظلة بن صفوان من أنه جعل "على كل نصراني وسما صورة أسد"[1]. ومن هذه الإجراءات أيضًا أن يختم في رقاب أهل الذمة بالرصاص، وهذا الإجراء الأخير تعود جذوره إلى خلافة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)، وتشير المصادر إلى تطبيقه في كل من العراق ومصر، ومن ذلك ما أشار إليه البلاذري بقوله "وبعث عمر رضي الله عنه حذيفة ، أي : حذيفة بن اليمان ، وابن حنيف ، أي : عثمان بن حنيف إلى خانقين ضمن أرض السواد بالعراق .. وكانت من أول ما افتتحوا فختما أعناق أهل الذمة ثم قبضا الخراج". وفي موضع آخر يذكر "ختم عثمان بن حنيف في رقاب خمس مائة ألف وخمسين ألف علج وبلغ الخراج في ولايته مائة ألف الف درهم"[2]. أما بالنسبة إلى مثل هذا الإجراء في مصر فيشـــير ابن عبد الحكم ومن نقل عنه من المؤرخين المتأخرين إلى ذلك بقوله "وكتب عمر إلى عمرو بن

(١) ابن عبدالحكم، فتوح مصر وأخبارها، ص١٥١، المقريزي، الخطط، جـ١، ص٢٥، ٧٦، جـ٢، ص٩٢-٤٩٣، السيوطي، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة ، جـ١، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، (١٩٦٨م)، ص١٤٥ ، كاشف ، مصر الإسلامية، ص٦٢-٦٤؛ فهمي، موسوعة، ص٧٠-٧٢.

(٢) البلاذري، فتوح البلدان ، ق ٣ ، ص٣٧٨، ٣٨٠.

العاص أن تختم في رقاب أهل الذمة بالرصاص ويظهروا مناطقهم ويجزوا نواصيهم ويركبوا على الأكف - البراذع - عرضا ولا يضربوا الجزية إلا على من جرت عليه الموسى ..."[1]. وإذا كانت الأدلة المادية الباقية، حتى الآن، تعوزنا لكي نؤكد على مدى تطبيق الإجراءات المشار إليها سابقًا من عدمه، باستثناء الإجراء الأخير، فإن الأدلة المادية الباقية والمستمدة من النقوش الآثارية تؤكد استمرار تطبيق هذا الإجراء إبان العصر الأموي ولا سيما في خلافة الوليد بن عبد الملك (٨٦-٩٦هـ/٧٠٥-٧١٤م) وعلى يدي واليه على مصر قرة بن شريك (٩٠-٩٦هـ/٧٠٨-٧١٤م)، ودليل ذلك العثور على ثلاثة أختام مؤرخة على التوالي : ٩٠هـ/ ٧٠٨م، ٩٤هـ/٧١٢م، ٩٥هـ/ ٧١٣م .

والختم الأول محفوظ بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة، وهو ختم مسكوك من الرصاص على شكل دائري نقشت به كتابات بارزة من الوجهين نتجت عن طريق الضرب بقالب من حديد فوق وجهي الرصاص، ويلاحظ كذلك أن هذه القطعة مثقوبة من طرفيها بثقب نافذ لإدخال سلك خاص خلال هذا الثقب حتى يسهل تطويق الرقبة أو الذراع، ونقوش هذا الختم تتضمن على أحد وجهيه في سطرين متوازيين عبارة "[جز]ية سنة / تسعين"، وعلى الوجه الآخر في سطرين متوازيين أيضًا عبارة مصر / أبيو[ه] [2]. (شكل رقم ١١).

وتتضمن نقوش الختم الثاني ، وهو من النحاس ومحفوظ في المتحف البريطاني بلندن - على أحد وجهيه ثلاثة أسطر متوازية عبارة "سنة أ/ربع

(١) ابن عبد الحكم، فتوح مصر، ص١٥١، المقريزي، الخطط، جـ١، ص٧٦، السيوطي، حسن المحاضرة، جـ١، ص١٤٥.

(٢) فهمي، موسوعة ، ص٧٢-٧٣، ختم أموي مسكوك من الرصاص، ضمن بحث دراسة لبعض التحف الإسلامية المشار إليه سابقًا ، ص١٧١-١٧٩.

و/تسعين" وعلى الوجه الآخر في سطرين متوازيين عبارة "من أهل / مصر" (شكل رقم ١٢).

وما يزال يوجد بهذا الختم بقايا سلك كان يمر من ثقب نافذ من طرفيه أما الختم الثالث والأخير فهو من النحاس ومحفوظ في المتحف البريطاني أيضًا ونقوشه هي نفس نقوش الختم السابق ولكنه مؤرخ بعام ٩٥هـ/ ٧١٣م[١] وتدل نقوش هذه الأختام الثلاثة على أنها قد صنعت بغرض تحصيل الجزية ؛ ولذلك كان ينقش عليها تاريخ السنة الهجرية التي تدفع فيها الجزية لتكون بمثابة دليل أو مستند على أن هذا الشخص أو ذاك قد قام بدفع تلك الجزية سواء كان من أهل مصر بصفة عامة أو من أهل قرية بعينها بصفة خاصة . ومهما يكن من أمر، فإنه من الواضح أن الغرض من وراء هذه الإجراءات الرغبة في تنظيم موارد الدولة والحفاظ على ميزانيتها .. وهناك ما يشير إلى أن هذه الأختام كانت تكسر بعد أداء الجزية ومن ذلك ما ذكره أبو يوسف بقوله "ينبغي أن تختم رقابهم ، أي : أهل الذمة في وقت جباية جزية رؤوسهم حتى يفرغ عرضهم، ثم تكسر الخواتيم كما فعل عثمان بن حنيف حينما سألوه كسرها[٢].

وهكذا لا تبدو عملية الختم حول الأيدي أو الرقاب أكثر من إجراء تنظيمي ووسيلة موقوتة تحقق مصلحة الجماعة ومصلحة الفرد نفسه فلا يحدث خطأ من شأنه أن يؤدي إلى تكرار دفع الجزية من شخص واحد أكثر من مرة

(١) فهمي، موسوعة ، ص٦٨-٦٩؛

Walker, J., A Catalogue of the Arab - Byzantine and post -Reform Umaiyad Coins, London, (1956), p.295.

(٢) أبو يوسف، يعقوب بن إبراهيم صاحب أبي حنيفة، ت ١٨٢هـ/٣٩٨، كتاب الخراج، تحقيق وتعليق محمد إبراهيم البنا، دار الإصلاح (١٩٨١م)، ص ٨٩، ٩١، ٢٦٣.

فيقع الغبن الصارخ، كما لا يمكن لفرد في ظل نظام الختم أن يفلت من التزامه بدفع الجزية[١].

أما عن عادة ختم الرقاب بالأختام فهي ليست من ابتكار العرب بل عرفت قبل العصر الإسلامي بقرون عديدة [٢] هذا من جهة، كما أنها من جهة ثانية لم تكن قاصرة على أهل الذمة وبغرض دفع الجزية فحسب حيث أشارت المصادر التاريخية إلى أنها اتبعت مع بعض المسلمين لأغراض سياسية إبان العصر الأموي نفسه[٣].

٢- من التاريخ السياسي :

أ- العصر العباسي الأول : ١٣٢-٢٣٢هـ/٧٤٩-٨٤٦م.

من المعروف أن فترة خلافة محمد الأمين (١٩٣-١٩٨هـ/٨٠٨-٨١٣م) كانت في الواقع فترة نزاع سادت فيها الفوضى وعم الاضطراب جميع أنحاء الدولة العباسية، ولم تنته تلك الفوضى بخلافة المأمون عام ١٩٨هـ/ ٨١٣م، بل ظلت آثارها عدة سنين حدثت في أثنائها ثورات من جانب العلويين وأخرى من جانب الأمويين[٤]. غير أن ما يعنينا في هذا المقام هو أن نتحدث عن مصر في تلك الفترة فقد امتدت إليها الفوضى كذلك، وقد أوردت المصادر إشارات كثيرة حول أحداث هذه الفترة فقد تحزب فريق للأمين وتحزب فريق آخر للمأمون، ولم يقف الأمر عند ذلك الحد بل تطورت الأحداث في عهد المأمون نفسه إلى نزاع بين الولاة والقواد للاستئثار بالسلطة كاملة والاستقلال بشؤون ولاية مصر

(١) فهمي، موسوعة، ص ٧٦.

(٢) فهمي، موسوعة ، ص٧٤-٧٥ (وما ورد بهما من مراجع حول هذا الموضوع).

(٣) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ١، ص٢٤٦.

(٤) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، جـ٨ ، ص٣٧٤-٤٩٨ ، ٥٢٧-٥٥٦.

عن الخلافة حتى عمل كل منهم على ضرب السكة باسمه بمجرد قضائه على منافسه، وكأن المسألة لم تعد تتصل بالحكومة المركزية في بغداد، وإنما أصبحت مصر وسط هذه الفوضى غنيمة لمن غلب، ومن هؤلاء القواد والولاة في تلك الفترة عباد بن محمد البلخي وجابر بن الأشعث والمطلب بن عبد الله الخزاعي والعباس بن موسى بن عيسى الذي أرسل ابنه عبد الله نائبًا عنه في مصر والسري بن الحكم وعبد العزيز بن الوزير الجروي، وليس أدل على مظاهر الاضطراب في تلك الفترة من بعض ما أورده المؤرخون من أن أعمال الشرطة في مصر قد وليها خمسة رجال على التوالي في بضعة أسابيع، كذلك قام بعض الثوار بجباية الضرائب لأنفسهم[١].

والحق أن الأدلة المادية المستمدة من النقوش الآثارية وبخاصة نقوش السكة إنما تثبت وتؤكد حقيقة تلك الأحداث المضطربة التي شهدتها مصر في التسعينات من القرن ٢هـ/٨م، إذ توجد نماذج من الدنانير الذهبية، ومنها دنانير عباد بن محمد البلخي (١٩٦-١٩٨هـ/ ٨١١-٨١٣م) وقد ضرب نقوداً باسم المأمون في عام ١٩٦هـ/ ٨١١م، وعام ١٩٧هـ/ ٨١٢م مع أن الخليفة الشرعي يومئذ هو الأمين (شكل رقم ١٣)، ودنانير المطلب بن عبد الله الخزاعي تتضمن نقوشها في فترة ولايته الأولى عام ١٩٨هـ/ ٨١٣م اسم الخليفة المأمون، أما فترة ولايته الثانية والتي تمت بمبايعة الجند (١٩٩-٢٠٠هـ/ ٨١٤-٨١٥م) فلا تتضمن نقوشها اسم المأمون، وإنما اسم الفضل بن سهل الذي ظهر على دنانير المطلب بلقبه "ذو الرياستين" سنة ١٩٩هـ/ ٨١٤م وهي

(١) الكندي، الولاة والقضاة ، ص١٤٧-١٦١؛ ابن تغري بردي، النجوم، جـ٢ ، ص١٨٨-٢١٢ ، كاشف، مصر الإسلامية ، ص ٨٨-٨٩، فهمي، موسوعة ، ص٩٠-٩١، ٩٣.

السنة التي ذكرت فيها مصر لأول مرة على يد المطلب كإقليم له الحق في الاستقلال بهذا النوع من السكة وهو الدنانير الذهبية[1]. (شكلا ١٤-١٥، لوحة ٣).

كذلك السري بن الحكم الذي استطاع أن يكون لنفسه ولأسرته أول دولة مستقلة عن الخلافة العباسية في مصر الإسلامية رغم قصر فترة حكمها، وهو ما سوف نشير إليه تفصيلاً في دراسة لاحقة بمشيئة الله تعالى[2].

ب - العصر الفاطمي :

من المعروف أن قيام الخلافة الفاطمي بالمغرب منذ عام ٢٩٧هـ/ ٩٠٩م كان سببًا في انقسام الحركة الإسماعيلية في زمن مبكر، فقد بنيت تلك الحركة ضد العقيدة السنية والتطلعات العباسية السياسية ونمت على فكرة تدميرها، وكونت لذلك التنظيم السياسي الديني المعروف بالدعوة، ومن ثم انتشر دعاة الفاطميين في طول الأراضي العباسية وعرضها يقومون بنشاط سياسي وأيديولوجي ليتمكنوا من القضاء على الخلافة العباسية[3].

وتدل الأحداث على أن الفاطميين منذ أن تأسست خلافتهم في المغرب لم يشاؤوا أن يستقروا بها، وإنما أرادوا أن يتخذوها قاعدة يعدون فيها العدة للانطلاق نحو الشرق، ودليل ذلك ما أشارت إليه المصادر التاريخية بخصوص

(١) فهمي، موسوعة ، ص٩١-٩٣، العش، النقود العربية الإسلامية المحفوظة، جـ١ ، ص٢٣٧-٢٣٩، يوسف، نقود الخارجين ، ص٧٤-٨٦.

(٢) النقوش الكتابية الإسلامية وقيمتها التاريخية (المبحث الثاني)، سلسلة دراسات آثارية، العدد ٣، (قيد النشر).

(٣) سيد، أيمن فؤاد، الدولة الفاطمية في مصر ، تفسير جديد ، القاهرة ، الدار المصرية اللبنانية، (١٩٩٢م) ، ص٦٠-٦١.

تلك المحاولات المتكررة لفتح مصر منذ السنوات الأولى لحكم الخليفة عبيد الله المهدي (٢٩٧-٣٢٢هـ/٩٠٩-٩٣٣م) وفي عهد ابنه وخليفته القائم بالله (٣٢٢-٣٣٤هـ / ٩٣٣ - ٩٤٥م) ومنها ما حدث في الأعوام التالية : ٣٠١هـ/٩١٣م ، ٣٠٧هـ/٩١٩م ، ٣٢٤هـ/ ٩٣٥م ، إلا أن هذه المحاولات قد باءت بالفشل[١].

وتوقفت هذه المحاولات في خلافة المنصور بالله إسماعيل (٣٣٤-٣٤١هـ/ ٩٤٥-٩٥٢م) لانشغاله بالقضاء على ثورات البربر المتتالية والحركات الخارجية ومن أخطرها ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد المعروف بصاحب الحمار التي قضى عليها في عام ٣٣٦هـ/٩٤٧م كما سنشير إليها فيما بعد[٢].

وتشير المصادر إلى أن الخليفة المعز لدين الله (٣٤١-٣٦٥هـ/ ٩٥٢-٩٧٥م) قد وضع مشروع الانتقال إلى الشرق وفتح مصر موضع التنفيذ، ومن ثم أخذ يستعد لذلك الأمر بدرجة كبيرة لم يسبق لها مثيل، وقيل : إن بلاط المعز في صَبْرَة المنصورية لم يخل من الدعاة والرسل الذين توافدوا عليه

(١) ابن الأثير، الكامل ، مج٨ ، ص٨٤ ، ٨٩. ١١٣، المقريزي، الخطط، جـ١ ، ص١٧٤ ، ٣٢٧-٣٢٩، ٣٥١، اتعاظ الحنفا، جـ١، ص٦٨ - ٦٩ ٧١ - ٧٢ ، ٧٤ ، ابن عذاري، البيان المغرب، جـ١، ص١٧٠-١٧٢، ١٨١-١٨٢؛ القرشي، الداعي إدريس عماد الدين، عيون الأخبار وفنون الآثار (الجزء الخامس) ، أعده للنشر فرحات الدشراوي بعنوان "تاريخ الدولة الفاطمية بالمغرب من كتاب عيون الأخبار ، (١٩٧٩م) ، ص٣١-٧٩؛ إبراهيم ، حسن ، تاريخ الدولة الفاطمية ، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية ، ط٤ (١٩٨١م) ، ص٨٥ ، الدشراوي ، فرحات ، الخلافة الفاطمية بالمغرب ، التاريخ السياسي والمؤسسات ، ترجمة حمادي الساحلي ، بيروت ، دار الغرب الإسلامي ، (١٩٩٤م)، ص٢٠٨ - ٢٢٠ ، البيلي، محمد بركات ، استيلاء الفاطميين على مصر، ضمن كتاب بلاد المغرب وعلاقتها بالمشرق، القاهرة ، اتحاد المؤرخين العرب، (١٤١٨هـ/١٩٩٧م)، ص١٠٠-١٠٧.

(٢) انظر ص٢٠٧ - ٢١١ من هذا البحث.

يَحُثونه على تحقيق هدف الدعوة وأن يُعَجّل بغزو الشرق، فكان ، أي : المعز يجيبهم بأن الوقت لم يحن بعد ويذكرهم بالمحاولات السابقة التي باءت بالفشل، ويؤكد لهم يقينه في أن الله سيورث الأئمة الأرض كلها، وقيل : إن المعز رأى رؤية فحواها أنه رأى والده المنصور إسماعيل يتنبأ له بقرب فتح مصر، وأخبر المعز مشايخ كتامه بأنه لا يشك في فتح المشرق قريبًا وأنهم ، أي: الكتاميين طردوا قديمًا من المشرق وسيعودون إليه بفضل الأئمة، وقال في آخر كلامه لهم "واعلموا أنكم إذا لزمتم ما أمركم به، رجوت أن يقرب الله علينا أمر المشرق كما قرب أمر المغرب بكم انهضوا رحمكم الله ونصركم"[(١)].

وكان لسياسة اللين والمفاوضات ثم الدعاية بأوجهها المختلفة ومنها النقود أثر كبير وبارز في نجاح المشروع الفاطمي وذلك بواسطة الدعاة، ومن ذلك ما ذكر من أن المعز قد بذل مائة ألف دينار لابن جراح الطائي إن هو خالف الحسن ابن أحمد القرمطي، وأن المصريين استكثروا هذا المال، فضربوا أكثره دنانير من صفر وألبسوها الذهب وجعلوها في أسفل الأكياس وجعلوا الذهب الخالص على رؤوسها[(٢)].

وقيل أيضًا : إن أمور الديار المصرية قد اضطربت في أواخر عصر الإخشيديين بسبب المغاربة أعوان الخلفاء الفاطميين الواردين إليها من المغرب وقد استمال هؤلاء الدعاة نفراً من القواد ووجوه الرعية وأنفذ إليهم المعز بنوداً

(١) القاضي النعمان، أبو حنيفة بن محمد المغربي، ت ٣٦٣هـ/٩٧٣م، المجالس والمسايرات، تحقيق الحبيب الفقي وآخرون، تونس، الجامعة التونسية (١٩٧٨م)، ص٤٧٥-٤٧٦، ٥٠٨-٥٠٩؛ المقريزي، الخطط؛ جـ١، ص٣٥٢؛ سيد، الدولة الفاطمية، ص٦١-٦٢، إبراهيم ، علي، مصر في العصور الوسطى، ص١١٤.

(٢) ابن الأثير، الكامل، مج٨، ص٦٣٨-٦٣٩، الدواداري، كنز الدرر وجامع الغرر، جـ٦، ص١٥٩.

ففرقوها فيمن استجاب لهم وأمرهم أن ينشروها إذا قاربت عساكره مصر[1].

والحق أن الأدلة المادية المستمدة من النقوش الآثارية تؤيد حقيقة ما رددته المصادر التاريخية، وتثبت أن الخليفة الفاطمي المعز لدين الله قد وضع مشروع الانتقال للشرق وفتح مصر موضع التنفيذ منذ اعتلائه عرش الخلافة الفاطمية في عام ٣٤١هـ/ ٩٥٢م، ومن هذه النقوش ثلاثة دنانير تتضمن اسم الخليفة المعز وألقابه بصيغة "دعا الإمام معد لتوحيد الإله الصمد/ المعز لدين الله أمير المؤمنين" والعبارات الشيعية بصيغة "وعلى أفضل الوصيين ووزير خير المرسلين" وشهادة التوحيد والرسالة المحمدية، فضلاً عن تاريخ ومكان الضرب وهو مصر وذلك في السنوات التالية: ٣٤١هـ/٩٥٢م، (شكل رقم ١٦) ٣٤٣هـ/٩٥٤م، ٣٥٣هـ/٩٦٤م، أي قبل الفتح الفاطمي لمصر في عام ٣٥٨هـ/ ٩٦٨م بوقت طويل كما يتضح من تاريخ ضرب كل من الدينارين الأول والثاني وهو ١٧ سنة بالنسبة للدينار الأول و١٥ سنة بالنسبة للدينار الثاني.

ومن الواضح أن الغرض من هذه الدنانير هو الحرب النفسية والدعاية للفاطميين[2]، كما أنها توحي من ناحية أخرى بتغير السياسة الفاطمية منذ

(١) المقريزي، المقفى الكبير (تراجم مغربية ومشرقية من الفترة العبيدية) اختيار وتحقيق محمد اليعلاوي، بيروت، دار الغرب الإسلامي، (١٩٨٧م)، ص٣٣٢، ابن تغري بردي، النجوم، جـ٣، ص٣٢٦.

(٢) فهمي، موسوعة، ص٢٠٠، العش ، مصر القاهرة على النقود العربية الإسلامية، ضمن أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة، (مارس - أبريل ١٩٦٩م) ، القاهرة ، مطبعة دار الكتب (١٩٧١م)، ص ص٧-٨، الحسيني، دراسة تحليلية إسلامية عن نقود الدعاية والإعلام والمناسبات ، المسكوكات، العدد ٦، بغداد (١٩٧٥م) ، ص٩-١١، بن قربة، المسكوكات المغربية ، ص٣٥٠ حاشية ٣ ، شكل٥ ، داود ، المسكوكات الفاطمية ، ص٤٦ ؛ سيد ، الدولة الفاطمية ، ص٦٢، البيلي، استيلاء، ص١٠٨.

اعتلاء المعز الخلافة عام ٣٤١هـ/ ٩٥٢م، فحتى لا يتعرض المشروع الفاطمي للفشل والانتكاسة كما حدث قبل عهد المعز، كان لا بد من إعداد خطة مسبقة مدروسة وتنفيذها بدقة، وهو ما حدث بالفعل على يدي الخليفة المعز لدين الله، وقد اعتمدت هذه الخطة بدرجة كبيرة على الدعاة الفاطميين الذين انتشروا في مصر لدراسة أحوالها الداخلية ومراقبتها عن كثب ونشر الدعوة وتهيئة الأجواء واستمالة العامة والخاصة على السواء، زيادة على العيون والجواسيس الذين كانوا يكتبون إلى المعز بأخبار مصر، وقيل : إنه كان يرد عليهم بنفسه، ولم يقتصر الأمر على ذلك بل تسلل بعض الجواسيس إلى داخل القصر الإخشيدي نفسه وبالتالي استطاعوا أن يمدوا المعز بأدق المعلومات والتفاصيل وهو ما يستدل من بعض المصادر التاريخية المشار إليها وبصفة خاصة الخطط واتعاظ الحنفا للمقريزي.

وبالتالي كان لا بد من بذل الأموال على الأفراد الذين يتوسم فيهم الاستجابة للدعوة، وقد استغرق تنفيذ هذه الخطة نحو سبعة عشر عامًا كما يستدل من تاريخ أقدم الدنانير الثلاثة المشار إليها، زيادة على بعض النقوش الآثارية الأخرى، ومنها نقش طراز يتضمن اسم الخليفة المعز لدين الله ومكان نسجه وتاريخ النسج وهو مصر عام ٣٤٥هـ/٩٥٦م وهو محفوظ بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة (رقم السجل ١٣١٦٥)، ونقش آخر محفوظ بذات المتحف (مجموعة تونة) وهو مؤرخ بعام ٣٥٥هـ/٩٦٥م، ويتضمن الصيغة التالية "بسم الملك الله الرحمن الرحيم نصر من الله وفتح قريب لعبد الله ووليه معدّ أبي تميم الإمام المعز لدين الله أمير المؤمنين صلوات الله عليه سنة خمس وخمسين وثلثمئـ[ـه] ..."[١] .

---

(١) Combe, Repertoire , Tome, 5, p. 11, No 1622.

ومهما يكن من أمر فإن ضعف الخلافة العباسية من جهة وتردي الأوضاع عقب وفاة الحجر الأسود ، أي : كافور الإخشيدي ٣٥٧هـ/٩٦٧م كان له أثره الكبير في نجاح الفتح الفاطمي لمصر عام ٣٥٨هـ/٩٦٨م.

جـ - العصر الأيوبي :

أشارت المصادر التاريخية إلى أنه في عام ٦٤١هـ/١٢٤٣م تمت مصالحة بين الملك الصالح نجم الدين أيوب سلطان مصر وعمة الملك الصالح إسماعيل صاحب دمشق، واتفق الطرفان على أن تكون دمشق وأعمالها للصالح إسماعيل ومصر للصالح نجم الدين أيوب، وأن يبقى كل من صاحب حمص وحماه وحلب على ما هو عليه، وأن تقام الخطبة والسكة للصالح نجم الدين أيوب في كل من دمشق وحلب وحمص وأن يفرج الصالح إسماعيل عن المغيث بن الصالح نجم الدين أيوب الذي كان مسجونًا لدية، ونص الاتفاق كذلك على مهاجمة الملك الناصر داود صاحب الكرك وانتزاع أملاكه منه واقتسامها وغير ذلك[1]. والحق أن الأدلة المادية المستمدة من النقوش الآثارية وبخاصة نقوش السكة تثبت وتؤيد هذا الاتفاق وتلك المصالحة ؛ إذ توجد بعض الدراهم الأيوبية التي ضربت بمدينة دمشق عام ٦٤١هـ/ ١٢٤٣م وهو العام الذي تمت فيه المصالحة كما سبق القول. (شكل رقم ١٧).

وتتضمن نقوش هذه الدراهم في الوجه اسم الملك الصالح نجم الدين أيوب بن محمد ومكان وتاريخ الضرب وهو دمشق ٦٤١هـ/ ١٢٤٣م وفي الظهر اسم

---

(١) ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم، ت ٦٩٧هـ/١٢٩٧م، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، جـ٥، تحقيق حسنين ربيع، مراجعة وتقديم سعيد عاشور، القاهرة (١٩٧٥م)، ص٣٢٧-٣٣٠ ؛ المقريزي، السلوك، جـ١، ص٤١٧؛ ابن تغري بردي، النجوم، جـ٦، ص٣٠٧؛ غوانمه، إمارة الكرك الأيوبية، ص٢٦٥، النبراوي، درهم أيوبي يسجل مصالحة ملكية، ص١٥٥-١٥٦.

الخليفة العباسي المعاصر - وهو الإمام المستعصم بالله أمير المؤمنين ، واسم الملك الصالح إسماعيل وهو ما يتفق مع ما ورد ضمن شروط الاتفاق والمصالحة من أن تكون الخطبة والسكة في دمشق وأعمالها للصالح نجم الدين أيوب ؛ ولعل هذا ما يفسر نقش اسم الصالح نجم الدين أيوب وألقابه في ثلاثة أسطر متوازية بمركز الوجه، بينما ورد اسم الصالح إسماعيل أسفل اسم الخليفة العباسي بمركز الظهر ، على الرغم من أنه ، أي : الصالح إسماعيل هو الحاكم الفعلي لدمشق[1]. هذا ولم يقدر للاتفاق المذكور أن يطول، إذ سرعان ما نقضه الصالح إسماعيل في نفس السنة، ومن ثم أعاد المغيث ابن الصالح نجم الدين إلى السجن بعد أن زين له وزيره السامري سوء فعله قائلاً له "هذا خاتم سليمان لا تخرجه من يدك"، كما أرسل يستدعي قواته من عجلون، فضلاً عن تحالفه مع الناصر داود صاحب الكرك ومع الفرنجة[2].

وتؤكد نقوش السكة نقض ذلك الاتفاق، إذ توجد عدة دراهم لا تتضمن نقوشها اسم الملك الصالح نجم الدين أيوب، وإنما تقتصر فقط على اسم الصالح إسماعيل وألقابه بمركز الوجه واسم الخليفة العباسي المستعصم بالله وألقابه بمركز الظهر، زيادة على مكان وتاريخ الضرب وهو دمشق ٦٤٢-٦٤٣هـ/ ١٢٤٤- ١٢٤٥م بل وقلد "الصليبيون" دراهم هذه الفترة[3].

---

(١) النبراوي، درهم أيوبي، ص١٥٠-١٥٧، لوحتا ١-٢، شكلا ١-٢.

(٢) ابن واصل، مفرج الكروب، جـ٥، ص٣٣١-٣٣٣؛ المقريزي السلوك، جـ١، ص٤١٧-٤١٨؛ ابن تغري بردي، النجوم، جـ٦، ص٣٠٧. غوانمه، إمارة الكرك، ص٢٦٦-٢٦٧.

(٣) النبراوي، درهم أيوبي ، ص١٥٤-١٥٥ ، ١٥٦، حاشية ١٤ ، الطراونة ، المسكوكات الأيوبية، ص٢٢١، لوحة١٠٤.

Balog, p. the coinage of the Ayyubids, London, (1980) pp. 242, 245.

٣- من التاريخ العسكري في العصر المملوكي الجركسي :

من المعروف أن العلاقات المملوكية العثمانية - قبل أن يتم الفتح العثماني لمصر عام ٩٢٣هـ/١٥١٧م - قد اتخذت أطواراً عديدة بين مَدّ وجَزْر فتارة يسودها الوئام والود، ومن ثم تتبادل الهدايا في العديد من المناسبات ومنها التهنئة بالجلوس على العرش أو التهنئة بإحراز الانتصارات العسكرية أو عقب معاهدة للصلح بين الطرفين، وفي بعض الأحيان للتمويه على التحركات العسكرية[1]، وتارة أخرى تتوتر العلاقات بشدة لتعارض المصالح المشتركة بين الطرفين، وهو ما يترتب عليه الصدام العسكري المباشر مثلما حدث في عهد السلطان المملوكي الأشرف قايتباي (٨٧٢-٩٠١هـ/١٤٦٧-١٤٩٦م). وتشير المصادر التاريخية إلى أن أواصر المودة وعلاقات الود كانت سائدة في أوائل عهد السلطان قايتباي، غير أنها سرعان ما بدأت تسوء وتتوتر بشدة عقب تولية السلطان العثماني بايزيد الثاني العرش بعد وفاة والده السلطان محمد الفاتح في عام ٨٨٦هـ/ ١٤٨١م، وكان سبب ذلك هو النزاع بين بايزيد وأخيه جم، والتجاء هذا الأخير إلى السلطان قايتباي الذي أكرم وفادته وجهزه للسفر لأداء فريضة الحج مع أسرته، مما آثار غضب السطان بايزيد، ومن ثم أخذ يتحين الفرص لتصفية حسابه مع السلطنة المملوكية، وقد تجمعت لديه بعض الأسباب مما جعل الحرب تطل برأسها بين الدولتين ، على الرغم مما بذل من محاولات للصلح ولاسيما من قبل السلطان قايتباي والخليفة العباسي.

وهكذا لم يكن أمام السلطان قايتباي من خيار سوى الحرب، ولذلك أخذ

(١) خليفة، تأثيرات مملوكية عثمانية متبادلة في مجال صناعة التحف المعدنية، دراسات آثارية إسلامية، المجلد الرابع، القاهرة، المجلس الأعلى للآثار المصرية، (١٩٩١م)، ص٥٣-٥٤.

يستعد للأمر ويجيش الجيوش فأرسل ثلاث تجاريد أو حملات متتابعة تحت قيادة الأمير الكبير الأتابكي أزبك فيما بين عامي ٨٩٠-٨٩٥هـ/ ١٤٨٥-١٤٨٩م وتحقق فيها جميعًا النصر للجيش المملوكي[1].

غير أن ما يعنينا من هذه الحملات الثلاث إنما هو أمر الحملة الأولى التي بدأت عام ٨٩٠هـ/١٤٨٥م، ويرجع ذلك بطبيعة الحال لارتباط أخبار هذه الحملة وما تمخضت عنه من نتائج بنقش آثاري مؤرخ بعام ٩٠١هـ/ ١٤٩٦م.

وفحوى هذه الأخبار، كما يستدل من المصادر التاريخية، هو أنه بعد أن تقابل كل من الجيشين المملوكي بقيادة الأتابكي أزبك والعثماني بقيادة الأمير أحمد بك بن هرسك، كان النصر حليف الجيش المملوكي الذي استطاع أن يوقع هزيمة منكرة بالجيش العثماني، وما صحب ذلك من قتل الكثيرين من أفراده وتشتت بعضهم الآخر، زيادة على أسر عدد كبير كان من بينهم أحمد بك بن هرسك قائد الجيش العثماني، وتضيف هذه المصادر فتذكر أن الجيش المملوكي

(١) السخاوي، وجيز الكلام في الذيل على دول الإسلام، جـ٣، تحقيق بشار عواد معروف وآخرين، بيروت، مؤسسة الرسالة (١٩٩٥م)، ص٩٦٨-٩٧٢ ؛ ابن إياس، بدائع الزهور، جـ٣، ص٢٢٦، ٢٢٨-٢٣٠ ، ٢٣٥ ، ٢٣٧ ، ٣٢٥ ، ابن طولون ، شمس الدين محمد، مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، ق١، تحقيق محمد مصطفى، القاهرة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر، سلسلة تراثنا (١٩٦٢م)، ص٧٠، ٧٣-٧٥، إعلام الورى بمن ولى نائبًا من الأتراك بدمشق الشام الكبرى، تحقيق محمد أحمد دهمان، دمشق، دار الفكر، ط٢، (١٩٨٤م)، ص٩٥-٩٦؛ طرخان، مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، (١٩٦٠م)، ص١٦٦-١٧٣، عبد التواب ، عبد الرحمن محمود، قايتباي المحمودي، الاعلام (٢٠)، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب (١٩٧٨م) ، ص١٦٧-٢٧١؛ غوانمه ، دراسات في تاريخ الأردن وفلسطين في العصر الإسلامي، ص٢٣٢-٢٣٣، عبد الدايم ، عبد العزيز محمود، مصر في عصري المماليك والعثمانيين، القاهرة، مكتبة زهراء الشرق، (١٩٩٦م)، ص١٥٥-١٥٦.

المنتصر قد عاد إلى القاهرة ودخلها في ذي القعدة عام ٨٩١هـ/١٤٨٦م، وعن تفصيل ذلك يذكر ابن إياس "فلما دخل العسكر إلى القاهرة كان لهم يوم مشهود حتى رجت لهم القاهرة، وكان قدامهم الأسرى من عسكر ابن عثمان - أي السلطان بايزيد الثاني - وهم مشاة في زناجير (سلاسل) وصناجق ابن عثمان منكسة، وكان صحبتهم جماعة من أمرائه وهم في زناجير على خيول، ودخل الأمير أحمد بن هرسك راكبًا وفي عنقه زنجير، وكان ابن هرسك من أعيان أمراء ابن عثمان، فلما عرضوا على السلطان وهو بالحوش عاتب أحمد بك بن هرسك ووبخه بالكلام ثم سلمه إلى الأمير قانصوه خمسمائة أمير آخور كبير، ثم وزع بقية الأسرى على جماعة من المباشرين حتى قضاة القضاة، ثم أخلع على الأتابكي أزبك وبقية الأمراء ونزلوا إلى دورهم لما انقضى أمر هذه الحركة[١].

والحق أن الأدلة المادية المستمدة من النقوش الآثارية وبخاصة النقوش الإنشائية تؤيد ما ذكرته المصادر التاريخية بل وتتطابق معه، ومنها النقش الإنشائي لقبة يعقوب شاه المهمندار بالقاهرة (لوحتا ٤-٥) والمؤرخ بعام ٩٠١هـ/ ١٤٩٦م، ونظراً لأهمية هذا النقش أفردنا له دراسة مستقلة[٢]؛ ويتضمن هذا النقش وصفًا لهذه الحملة ونتائجها وذلك على النحو التالي "... وتوجه العساكر المنصورة إلى مملكة الروم لرد عساكرهم، فلما أن تقابل العسكران وهجمت العساكر المنصورة عليهم كالأسود الضراغم فضيقوا عليهم الأرض بما رحبت فما وسعهم إلا الفرار، ففروا كحمر مستنفرة فرت من قسورة،

(١) ابن إياس، بدائع، جـ٣، ص٢٣٥.

(٢) نقش كتابي غير تقليدي من أواخر العصر المملوكي الجركسي، دراسة تحليلة في المضمون ، ص١-٢٠، (وما يزال هذا البحث قيد النشر) لوحات ١-٣.

فوقع في قبضتهم باش عساكرهم ، أي : لقائد بن هرسك ومن دونه، وشبع من لحوم قتلاهم الضباع والذئاب والنسور والعقبان فأحضروهم في السلاسل والأغلال بين يدي الحضرة المعظمة وصناجقهم منكسة بالحوش الشريف، وكان يومًا ما كتب مثله في تواريخ الأمم السالفة ..."[1].

وبعد فإن مطابقة ما ورد في النقش مع ما ذكره ابن اياس يكفي لإثبات تلك العلاقة القائمة بين التاريخ والآثار وأنه لا غنى لأحدهما عن الآخر إذا ما أردنا أن نقدم صورة نقية أقرب ما تكون إلى الحق والواقع.

ثالثًا - المغرب والأندلس :

١- من التاريخ السياسي :

أ - عصر الأغالبة :

اتسم عهد زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب المعروف بزيادة الله الأول (٢٠١-٢٢٣هـ/ ٨١٦-٨٣٧م) بكثرة الفتن والثورات التي اندلعت في عهده، ومن أخطرها ثورة منصور بن نصر الطنبدي، وتشير المصادر التاريخية إلى أن هذه الثورة كانت من القوة بحيث إنه لم يبق بيد زيادة الله سوى قابس والساحل ونفزاوة وطرابلس، كما طلبوا من زيادة الله الرحيل من أفريقية ومنحه الأمان على نفسه وأهله، وضرب منصور الطنبدي السكة باسمه، وكانت أحداث الثورة ووقائعها فيما بين عامي ٢٠٩-٢١١هـ/ ٨٢٤-٨٢٦م) [2].

---

(١) Berchem, Corpus, II, pp. 547-548.

(٢) ابن الأثير، الكامل، مج٥، ص٤٨٤-٤٨٥؛ ابن الأبّار ، الحلة السيراء، جـ٢، ص٢٨٣-٣٨٣؛ ابن عذارى، البيان، جـ١، ص٨٩-٢٠١؛ سالم، تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، ص٢٩٥-٢٩٨، بن قربه، المسكوكات المغربية ، ص٢٤٣-٢٤٥، الحسيني، دراسات عن نقود الثوار والشعارات والمناسبات المضروبة في أفريقيا، المسكوكات ، العدد٧، بغداد (١٩٧٦م)، ص٣٣-٥٣؛ الطالبي، الدولة الأغلبية، التاريخ السياسي، ص١٩٠-٢٢٩.

والحق أن الأدلة المادية المستمدة من النقوش الآثارية وبخاصة نقوش السكة تثبت وتؤيد ما ذكرته المصادر التاريخية بشأن هذه الثورة، وسيطرة منصور بن نصر الطنبدي على غالبية ممتلكات زيادة الله الأغلبي، بإستثناء بعضها المشار إليها سابقًا، وضرب السكة باسمه، إذ يحتفظ متحف باردو بتونس بدرهم فضي ضرب بإفريقية عام ٢١٠هـ/ ٨٢٥م[١]، وتتضمن نقوشه في مركز الوجه شهادة التوحيد فضلاً عن كلمتين متكررتين وهما "بخ بخ" وفي الهامش البسملة غير الكاملة ومكان وتاريخ الضرب بصيغة "بسم الله ضرب هذا الدرهم بأفريقية سنة عشرة وما يتين". (لوحة ٦).

أما الظهر فتتضمن نقوشه في المركز اسم الرسول ﷺ واسم الثائر منصور بن نصر، زيادة على كلمتين إحداهما عدل وتمثل الشعار الذي رفعته الثورة لجذب الناس ومؤازرتهم لها، وقد حل محل شعار الأغالبة الذي ورد على سكتهم وهو "غلب"، والكلمة الثانية وهي منصور تشير إلى لقب الطنبدي وانتصاره على زيادة الله الأغلبي، أما كلمة منصور الأولى فهي تشير بطبيعة الحال إلى اسم الطنبدي، أما هامش الظهر فيتضمن الإشارة إلى الرسالة المحمدية.

ومهما يكن من أمر فإنه لولا بذور الخلاف والنزاع الذي قام بين منصور بن نصر الطنبدي وبين قائده عامر بن نافع الذي أدهشه نفوذ سيده واتساع رقعة البلاد التي دانت له ودخلت في طاعته، لما انتهت هذه الثورة، ولكان تاريخ الأغالبة غير الذي نقرأه اليوم[٢].

(١) عبد الوهاب، حسن حسني، ورقات ، ق١، ص٤٣١، العجابي، جامع المسكوكات العربية بأفريقية، ص٢٣، الحسيني، دراسات عن نقود الثوار ، ص٣٤-٣٥، بن قربة، المسكوكات المغربية ، ص٢٤٥-٢٤٧.

(٢) سالم، تاريخ المغرب، ص٢٩٨، بن قربة، المسكوكات المغربية، ص٢٤٧.

ب – العصر الفاطمي :

بعد وفاة الخليفة الفاطمي عبيد الله المهدي في عام ٣٢٢هـ/ ٩٣٣م تفجرت الكثير من الثورات في بلاد المغرب، ومن أخطرها ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد اليفرني الزناتي المعروف بصاحب الحمار لركوبه حماراً أشهب، وقد شغلت هذه الثورة عهد الخليفة القائم بالله كله (٣٢٢-٣٣٤هـ/٩٣٣-٩٤٥م) زيادة على عامين من عصر ابنه وخليفته المنصور إسماعيل (٣٣٤-٣٤١هـ/ ٩٤٥- ٩٥٢م) أي : إنها استغرقت نحو ١٦ عامًا، وليس أدل على خطورة هذه الثورة وأهمية القضاء عليها عام ٣٣٦هـ/٩٤٧م بالنسبة للخلافة الفاطمية أن الخليفة المنصور إسماعيل قد سجل انتصاره على أبي يزيد بإنشاء مدينة المنصورية في عام ٣٣٧هـ/٩٤٨م[١].

أما عن هذه الثورة، فتشير المصادر التاريخية إلى أن صاحب الحمار لما عظم أمره واستفحل خطره وأحس بقوته جاهر بعدائه للفاطميين واستطاع أن يستولي على القيروان عام ٣٣٣هـ/٩٤٤م وأن يضرب فيها في العام نفسه السكة هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى تشير هذه المصادر إلى أن المنصور إسماعيل بعد أن اعتلى عرش الخلافة الفاطمية عام ٣٣٤هـ/٩٤٥م "لم يتسم بالخليفة ولا غير السكة ولا الخطبة ولا البنود، وبقى كذلك حتى فرغ من أمر أبي يزيد، فلما فرغ منه أظهر موت أبيه وتسمى بالخلافة"[٢].

---

(١) سالم، تاريخ المغرب، ص٥٣٦ ٥٤٥، ابن قربة، المسكوكات المغربية، ص٣٣٤.

(٢) ابن خلدون، العبر، مج٤، ص٤٠-٤٥ ؛ ابن الأبار ، الحلة السيراء ، جـ٢ ، ص٣٨٧، ٣٩١؛ ابن عذارى، البيان المغرب، جـ١، ص٢١٦-٢٢٠؛ القرشي، عيون الأخبار، جـ٥، ص٨٠- ٣١٥ ، سالم، تاريخ المغرب، ص٥٣٦-٥٤٥، العبادي، سياسة الفاطميين، ص٢٠٢-٢٠٣، ابن قربة ، المسكوكات المغربية ، ص٤٠٩ - ٤١٣ ، الحسيني ، دراسات عن نقود الثوار ، ص٣٥ - ٣٨ ، الشابي ، ==

والحق أن الأدلة المادية المستمدة من النقوش الآثارية وبخاصة نقوش السكة تؤيد وتثبت ما ذكرته المصادر التاريخية بشأن هذين الأمرين، فبالنسبة للأمر الأول يوجد دينار ضرب في القيروان عام ٣٣٣هـ/٩٤٤م (شكل رقم ١٨، لوحة ٧) وهو نفس العام الذي ذكرته المصادر، وتتضمن نقوش هذا الدينار [١] النصوص التالية : الوجه : المركز "ربنا الله/لا حكم الا لله/ وحده لا شريك الله/ الحق المبين" الهامش "بسم الله الرحمن الرحيم ضرب هذا الدينر بالقيروان سنة ثلث وثلثين وثلثمائة"

الظهر : المركز "العزة لله / محمد/ رسول / الله / خاتم النبيين"

الهامش الداخلي "الذين أمنوا به وعززوه ونصروه واتبعوا النور الذي انزل معه أولئك هم المفلحون"

== محمد، دولة صاحب الحمار ونقوده ، ضمن أبحاث المؤتمر الرابع للآثار في البلاد العربية ، المنعقد في تونس في الفترة ٣-١٩ مايو ١٩٦٣م، القاهرة، ١٩٦٥م ص٥٩٠-٦٠١؛ العجاب ي، جامع المسكوكات، ص٢٤ -٢٥؛ إسماعيل، الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجري، القاهرة ، مكتبة الحرية الحديثة ، ط٢ (١٩٨٦م) ، ص٦٣٢ - ٣٥٢ ؛ المجدوب ، عبدالعزيز ؛ الصراع المذهبي بأفريقية إلى قيام الدوة الزيرية ، تونس، الدار التونسية للنشر، (١٩٧٥م)، ص١٩٤-٢٠٢؛ الدشراوي، الخلافة الفاطمية بالمغرب، ص٢٤٧-٢٧٠، ٢٨-٣٠٦. إبراهيم، حسن، تاريخ الدولة الفاطمية، ص٩٠-٩٢؛ ولمزيد من التفاصيل عن مصادر هذه الثورة انظر: عباس، إحسان مصادر ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد (نظرة تقويمية)، ضمن أشغال المؤتمر الأول لتاريخ المغرب العربي وحضارته، جـ١ ، سلسلة الدراسات التاريخية، الجامعة التونسية ، مركز الدراسات والأبحاث الاقتصادية والاجتماعية، (١٩٧٩م)، ص١١٣-١٢٦ .

(١) عبد الوهاب، حسن حسني، ورقات ، ق١، ص٤٤٠، الشابي، دولة صاحب الحمار ونقوده ، ص٥٩٨-٦٠١ ؛ الحسيني، دراسات عن نقود الثوار، ص٣٦، بن قربه ، المسكوكات المغربية، ص٤١٥-٤١٧ ؛ بيتس ودوران، فن العملة الإسلامية ص ٣٧٠ رقم ٤٤٠.

الهامش الخارجي : "محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون".

ومما لا شك فيه أن ما أضافه صاحب الحمار على سكته من شعارات إلى شعار الخوارج (لا حكم إلا لله) وهي (ربنا الله الحق المبين) و (العزة لله) و(الذين أمنوا به وعززوه ... المفلحون) ما هو إلا تعبيرا لطبيعة الوضع السياسي العام في بلاد المغرب يومئذ وتأكيداً لما يبتغيه من حركته الثورية وهو القضاء على هذه الخلافة الشيعية والخلاص منها، وهو ما يتفق مع ما ذكرته المصادر من أن صاحب الحمار كان زعيم الخوارج الأباضية النكارية أتباع ابن فندين الذين أنكروا إمامة عبد الوهاب بن رستم، وكان يدعو إلى تكفير الشيعة واستباحة الأموال والدماء والخروج على الفاطميين لانحرافهم عن مبادئ الإسلام بسبهم لأبي بكر وعمر (رضي الله عنهما)، ولم تقتصر شعاراته على السكة فحسب، بل نقش بعضها الآخر على البنود، ومنها بند مكتوب عليه "نصر من الله وفتح قريب على يدي الشيخ أبي يزيد، اللهم انصر وليك علي من سب أولياءك، وبند آخر مكتوب عليه "قاتلوا أئمة الكفر ... الآية.

وبند ثالث مكتوب عليه "قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم" وبند رابع مكتوب عليه "محمد رسول الله، أبو بكر الصديق، عمر الفاروق"، وبند خامس مكتوب عليه "لا إله إلا الله إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا" وغير ذلك[1].

(١) ابن خلدون، العبر، مج٤، ص٤٠-٤٥ ، ابن الأبار، الحلة السيراء، جـ٢، ص٣٨٧-٣٩١ ؛ ابن عذاري، البيان المغرب، جـ١، ص٢١٦-٢٢٠؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا ، جـ١، ص٧٥-٨٩ ؛ سالم، تاريخ المغرب، ص٥٣٧، ٥٣٩-٥٤٠، ابن قربه، المسكوكات المغربية، ص٤١٤.

أما عن الأمر الثاني فتوجد بعض الدنانير التي ضربت فيما بين عامي ٣٣٤-٣٣٦هـ / ٦٤٥ - ٩٤٧م لا تتضمن نقوشها أي إشارة إلى المنصور إسماعيل وألقابه وإنما تتضمن اسم أبيه وألقابه على الرغم من أن تاريخ ضرب هذه الدنانير يقع في فترة حكم المنصور إسماعيل، ويرجع ذلك بطبيعة الحال إلى أن المنصور إسماعيل بعد أن تولى الخلافة عقب وفاة أبيه عام ٣٣٤هـ/٩٤٥م قد أمر بكتمان خبر وفاة والده خشية أن يؤثر ذلك في حماس جيشه وفتور عزيمتهم، مما يتيح لصاحب الحمار وجيشه النصر، ولذلك أبقى الأمور على حالها مثلما كانت على عهد أبيه ولاسيما الخطبة والسكة والبنود، زيادة على أنه لم يتسم بالخليفة حتى تم له النصر على صاحب الحمار في عام ٣٣٦هـ/٩٤٧م فأعلن عن موت أبيه وتسمى بالخلافة[١].

ومن هذه الدنانير دينار ضرب بالقيروان في عام ٣٣٥هـ/٩٤٦م (لوحة ٨) تتضمن نقوشه النصوص التالية[٢].

الوجه : المركز "محمد / ابو القسم /لا إله إلا الله / وحدة لا شريك له / المهدي بالله" .

الهامش "محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله".

الظهر المركز : الإمام / القائم بالله / محمد / رسول الله / أمير المؤمنين".

الهامش الداخلي "بسم الله ضرب هذا الدينر بالقيروان سنة خمس وثلثين وثلثمائة".

---

(١) القرشي، عيون الأخبار، جـ٥، ص٢٩١ ؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا، جـ١ ، ص٨٩.

(٢) ابن قربة، المسكوكات المغربية، ص ص٣٣٤-٣٣٥، العجابي، جامع المسكوكات، ص ١٩٨.

Condia, F., Mommaies Fatimites du Musee du Bardo, Revue Tunisienne, (1936), p. 354, No20.

الهامش الخارجي "وتمت كلمات ربك صدقا وعدلا لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم" .

أما الدنانير التي ضربت عقب قضائه على ثورة صاحب الحمار ٣٣٦هـ/ ٩٤٧م وحتى وفاته في عام ٣٤١هـ/ ٩٥٢م فتتضمن نقوشها اسمه وألقابه الخلافية وهي الإمام المنصور إسماعيل أمير المؤمنين.

ومن هذه الدنانير دينار ضرب بالمهدية في شهر ذي القعدة عام ٣٣٦هـ/ ٩٤٧م أي بعد عشرة أشهر من قضائه على ثورة صاحب الحمار في المحرم ٣٣٦هـ/٩٤٧م وتتضمن نقوش هذا الدينار النصوص التالية [١] .

الوجه : المركز "الإمام / لا اله / إلا الله/ المنصور بالله"

الهامش "بسم الله ضرب هذا الدينر بالمهدية شهر ذي القعدة من سنة ست وثلثين وثلثماية".

الظهر : المركز "إسمعيل/ محمد/ رسول الله/أمير المؤمنين".

الهامش "محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون".

جـ- عصر دولة بني حماد :

كان أمراء قلعة بني حماد والناصرية يضربون السكة بأسماء الخلفاء الفاطميين إعلانًا لتبعيتهم السياسية أو الاسمية على الأقل، وظل الأمر على ذلك حتى عهد يحيى بن العزيز بالله (٥١٥-٥٤٧هـ/١١٢١هـ/١١٥٢م) آخر أمراء بني حماد الذي خلع طاعة الخليفة الفاطمي واعترف بالخليفة العباسي

(١) ابن قربة ، المسكوكات المغربية، ص ٣٣٦ ؛ العجابي، جامع المسكوكات، ص ٢٠٠.
Condia, Mommaies, p. 356, No22.

المعاصر له وهو المقتفي لأمر الله (٥٣٠-٥٥٥هـ / ١١٣٥-١١٦٠م)، وفي ذلك يذكر ابن خلدون "واستحدث - أي يحيى بن العزيز بالله - السكة ولم يحدثها أحد في قومه تأدبًا مع خلفائهم العبيديين، وأن سكته في الدينار ثلاثة سطور ودائرة في كل وجه، فدائرة الوجه الواحد : واتقوا يومًا ترجعون فيه إلى الله ثم توفي كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون، والسطور لا اله إلا الله محمد رسول الله يعتصم بحبل الله يحيى بن العزيز بالله الأمير المنصور، ودائرة الوجه الآخر : بسم الله الرحمن الرحيم ضرب هذا الدينار بالناصرية سنة ثلاث وأربعين وخمسماية وفي سطوره الإمام أبو عبد الله المقتفي لأمر الله أمير المؤمنين العباسي[1].

والحق أن الأدلة المادية المستمدة من النقوش الآثارية وبخاصة نقوش السكة تثبت ما ذكره ابن خلدون وتؤيده، إذ عثر على دينار ذهبي في حفائر قلعة بني حماد بالجزائر تتطابق نقوشه تمامًا مع ما ذكره ابن خلدون زيادة على تاريخ الضرب وهو ٥٤٣هـ/ ١١٤٨م[2].

---

(١) ابن خلدون، العبر، جـ٦، بيروت، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات (١٧٩١م)، ص ١٧٧.

(٢) بن قربة، المسكوكات المغربية، ص ٥١٢-٥١٣، يوسف، دراسة مقارنة للآيات القرآنية على السكة الإسلامية، ص١٨٠-١٨٢؛ العربي، دولة بني حماد ملوك القلعة وبجاية، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، (١٩٨٠م)، ص ٢٢٠؛ عويس، عبد الحليم، دولة بني حماد ، صفحة رائعة من التاريخ الجزائري، القاهرة ، دار الصحوة، ط٢، (١٩٩١م)، ص٢١٤-٢١٥؛

Beylie, L, La Kalaa des Beni Hammad, une Capital Berbere de L afrique du Nord Xiieme Siecles, Paris, (1908) pp. 88, 114; Hozard, H., the Numismatic History of the late medieval North Africa, Numismatic (studies, No., 80) New York, the Amercan Numismatic society, (1952),p. 96.

د - عصر دولة بني مرين :

أشارت المصادر التاريخية إلى سياسة السلطان أبو الربيع سليمان (٧٠٨-٧١٠هـ/١٣٠٨-١٣١٠م) لتوطيد دولة بني مرين، ومن ذلك أنه عقد اتفاقاً لحسن الجوار بينه وبين موسى بن عثمان بن يغمرا سن صاحب تلمسان، كما صالح ابن الأحمر وهو أبي عبد الله محمد الناصري صاحب غرناطة وذلك في عام ٧٠٨هـ/١٣٠٨م، وتنازل له هذا الأخير عن الجزيرة الخضراء ورندة ونواحيها، بل ووصل الأمر إلى حد المصاهرة حيث تزوج السلطان المريني من أخت السلطان ابن الأحمر صاحب غرناطة[1].

والحق أن الأدلة المادية المستمدة من النقوش الآثارية وبخاصة نقوش السكة تثبت ما ذكرته المصادر التاريخية وتؤيده وبخاصة ما ورد بشأن الاتفاق الذي تم بين السلطان المريني والسلطان ابن الأحمر في عام ٧٠٨هـ/١٣٠٨م؛ إذ عثر على دينار ذهبي مؤرخ بنفس عام المصالحة والاتفاق المشار إليه، وتتضمن نقوش هذا الدينار اسم كل من السلطان المريني والسلطان ابن الأحمر[2] .

٢ - من التاريخ الاقتصادي :

أ - عصر دولة بني مرين :

اهتم المرينيون بالموازين والمكاييل اهتماماً كبيراً، غير أن ما يعنينا هنا

(١) ابن خلدون، العبر، مج٧، بيروت، دار الكتاب اللبناني، (١٩٨١م)، ص٤٩٤-٤٩٥، السلاوي، الاستقصاء ، جـ٣، ص١٠١، الحريري، محمد عيسى، تاريخ المغرب الإسلامي في العصر المريني، الكويت، دار القلم (١٩٨٥م)، ص٩٧-٩٨.

(٢) ابن قربة، المسكوكات المغربية، ص١٤؛

Lavoix, H., Catalogue des mommaies musulmans de la bibliotheque Nationale de paris, vol, 2, Espagne et Afrique, paris, (1891), preface., p. X LIII,

هو ما يرتبط بتحقيق المكاييل خاصة وتعديلها على المد النبوي كما يستدل من المصادر التاريخية والنقوش الآثارية على السواء . ومن ذلك ما أشارت إليه تلك المصادر من أن السلطان المريني يوسف بن يعقوب قد عمل على تحقيق المكاييل فأمر في عام ٦٩٣هـ/١٢٩٣م بتعديل الصيعان على المد النبوي فصار الصاع المريني من أربعة أمداد بمد الرسول ﷺ ، وهو يعادل كيلاً سعته ٦,٩٢٤ لتراً ، وستون من هذا الصاع هي الوسق الذي يسمى في المغرب بالصحفة، وهو يعادل كيلاً سعته ٣٦٥,٥٤٤ لتراً، وقام السلطان أبو سعيد الأول بتعديل مد آخر على مد أخيه يوسف المذكور، ومن بعده قام السلطان أبو الحسن المريني بتعديل مد يوسف بن يعقوب أيضًا[١].

وكان الغرض من تعديل الامداد النبوية على ذلك النحو أن تكون مرجعًا في تحقيق الصاع والوسق، وقد ظل الاهتمام بتحقيق المكاييل المغربية وتعديل الأمداد قائمًا حتى أواخر العصر المريني[٢]. والحق أن الأدلة المادية الباقية المستمدة من النقوش الآثارية وبخاصة نقوش الفنون التطبيقية أو الزخرفية الإسلامية تؤيد ما ذكرته المصادر التاريخية وتؤكده، ومن هذه النقوش ما هو مسجل على مدين محفوظين بمتحف البطحاء بفاس، ويتضمن نقش المد الأول (لوحة ٩) الصيغة التالية "بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا، أمر بتعديل هذا المد المبارك

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، جـ٥، ص ١٧٧ ؛ ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص ٣٨٤ ؛ السلاوي، الاستقصاء، جـ٣، ص ٩٠-٩١؛ المنوني، محمد، ورقات عن حضارة المرينيين، سلسلة بحوث ودراسات رقم ٢٠، الرباض. منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، جامعة محمد الخامس، (١٩٩٦م)، ص ١٣٧.

(٢) المنوني ، ورقات، ص ١٣٧ -١٣٨.

مولانا أمير المسلمين أبو الحسن بن مولانا أمير المسلمين أبي سعيد بن مولانا أمير المسلمين أبي يوسف بن عبد الحق أيده الله ونصره على المد الذي أمر بتعديله مولانا أبو يعقوب رحمه الله تعالى، على المد الذي عدل الحسين بن يحيى البسكري بمد إبراهيم بن عبد الرحمن الجايشي الذي عدل بمد الشيخ أبي علي منصوربن يوسف القوامي، وكان أبو علي عدل مده بمد الفقيه أبي جعفر أحمد بن علي بن غزلون، وعدل أبو جعفر مده بمد الفقيه القاضي أبي جعفر أحمد بن الأخطل، وعدل أبو جعفر مده بمد خالد بن اسماعيل، وعدل خالد مده بمد أبي بكر أحمد بن حمد، وعدل أبوبكر مده بمد أبي إسحاق إبراهيم بن الشنظير وبمد أبي جعفر بن ميمون، وكانا عدلا مديهما بمد زيد بن ثابت صاحب رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وذريته وشرف وكرم، وكان تعديله في الخامس عشر من رجب الفرد الذي من سنه تسع وخمسين، وكان تعديل المد الذي عدله الحسين بن يحيى البسكري في شهر رمضان المعظم عام سبعة وستمائة، وكان تعديل المد الذي أمر بتعديله مولانا أبو يعقوب رحمه الله تعالى في جمادى الأولى عام ثلاثة وتسعين وستمائة ، وعدل الآن هذا المد المبارك تبركًا بالنبي ﷺ وإحيا (كذا) لسنته وذلك في جمادى الأخير عام أربعة وثلاثين وسبع مائة بمدينة فاس حرسها الله تعالى والحمد لله رب العالمين كثيراً"[1].

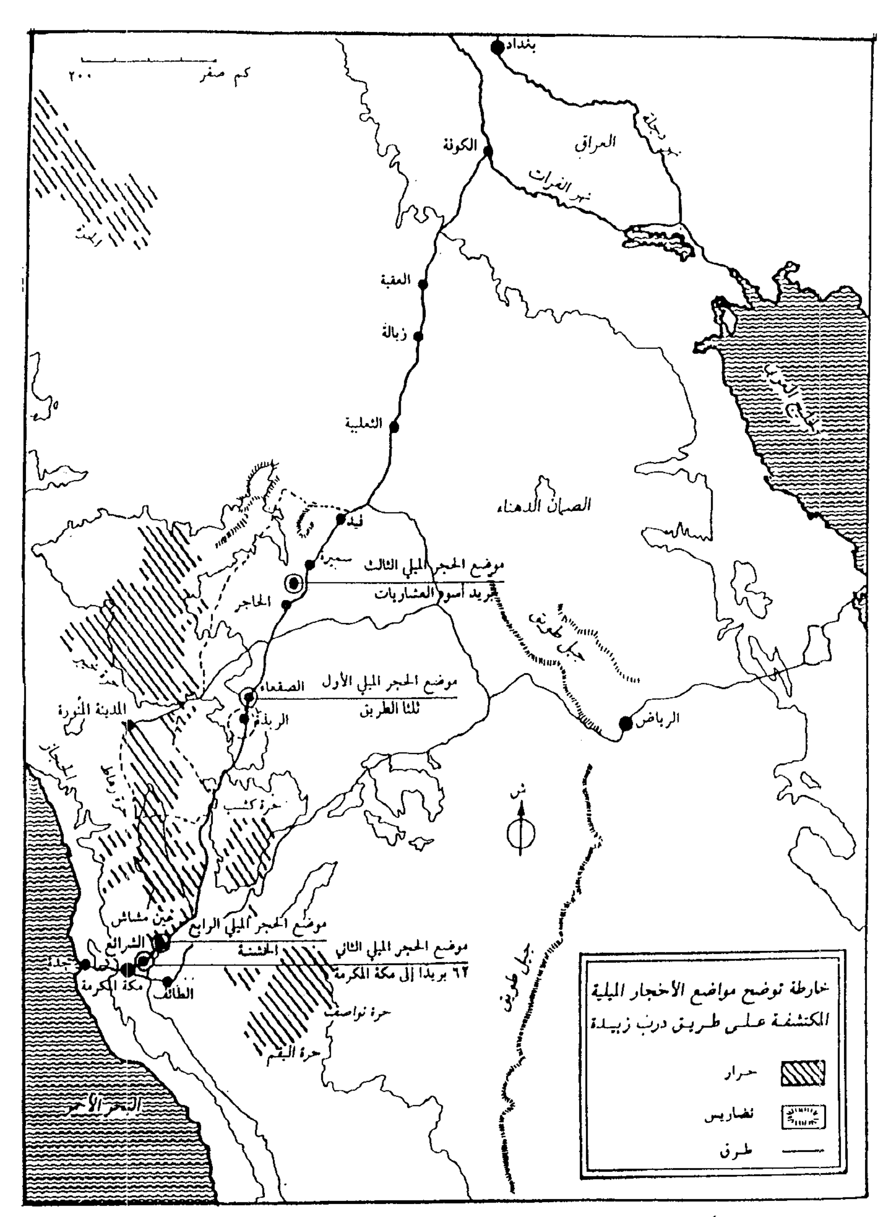
أما نقش المد الثاني فيتطابق مع نقش المد الأول باستثناء تاريخ التعديل فهو في هذا المد شهر رجب عام ٧٣٤هـ/١٣٣٣م[2]، بينما في المد الأول شهر جمادى الآخر من نفس العام كما سبق القول .

(١) المنوني، ورقات، ص١٣٨-١٤٠.

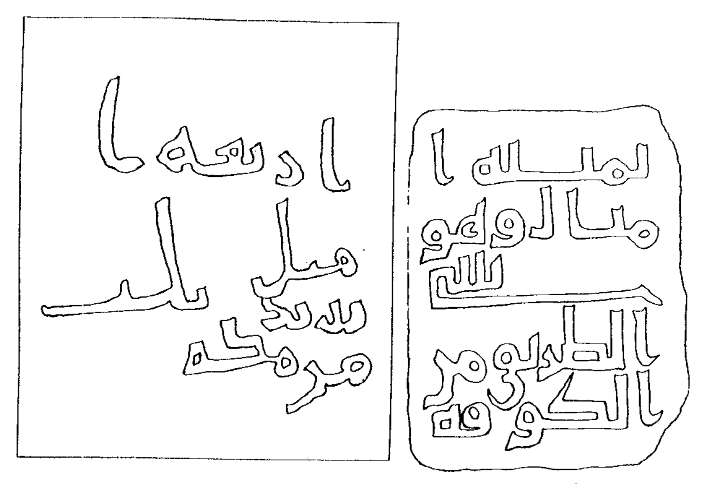
(٢) المنوني، ورقات، ص١٤٠-١٤١.

هذا السد لعبد الله معويه
امير المومنين بنيه عبد الله بن صخر
باذن الله لسنه ثمن وخمسين ا
للهم اغفر لعبد الله معويه ا
مير المومنين وثبته وانصره ومتع ا
لمومنين به كتب عمرو بن حبا

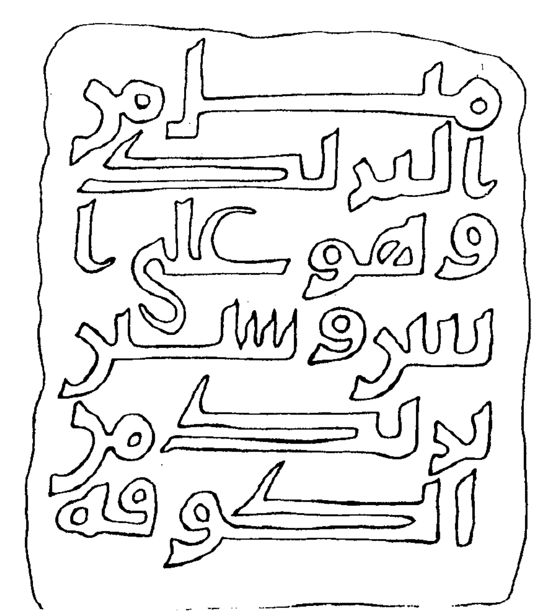
(شكل: ١) تفريغ لنقش إنشاء سد معاوية بالطائف (عن : جورج مايلز).



(شكل:٢) خريطة توضح مواضع النقوش الميلية العباسية المكتشفة على طريق درب زبيدة. (عن: سعد الراشد).

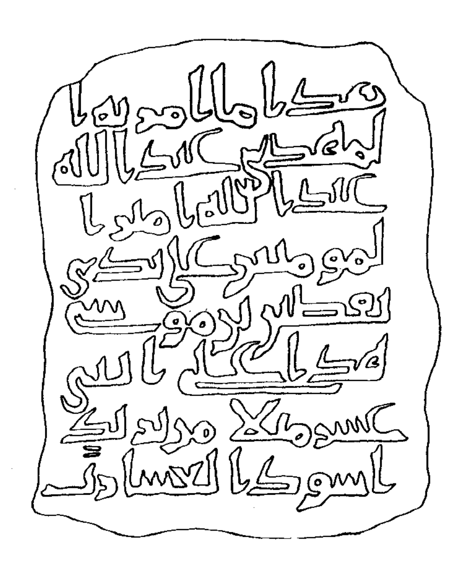


(شكل: ٣) تفريغ لنقش كل من الميلين الأول والرابع من عهد السفاح أو المنصور (١٣٢-١٥٨هـ/٧٤٩-٧٧٤م) (عن : سعد الراشد).

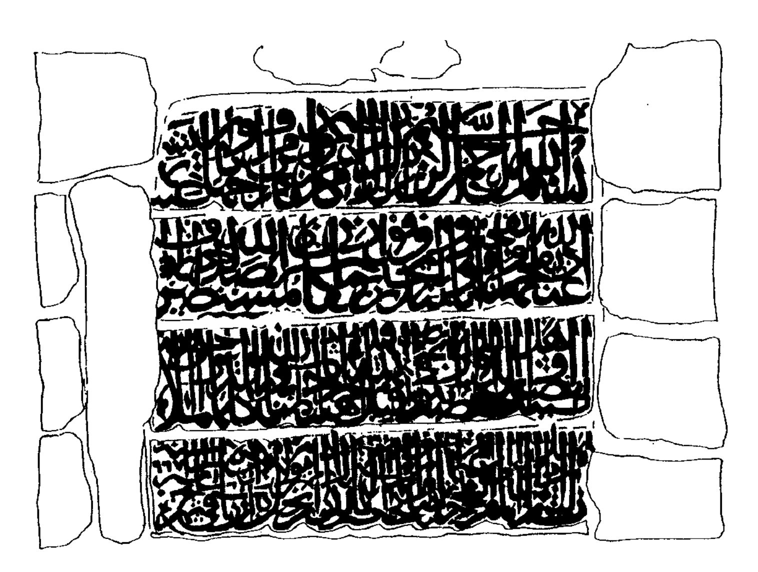


(شكل: ٤) تفريغ لنقش الميل الثاني من عهد الخليفة العباسي المهدي.

(عن : سعد الراشد)



(شكل: ٥) تفريغ لنقش الميل الثالث بإسم الخليفة المـــهدي العباســي ويقطين بن موسى. (عن : سعد الراشد).



(شكل:٦) تفريغ لنقش إنشاء بئر الامير عثمان بن ازدمر باشا المعروف ببئر الورادة بالمويلح مورخ بسنة ٩٦٧هـ/١٥٥٩م. (عـــن: علي غبان).




(شكل: ٧) تفريغ لنقش سكة ذهبية (دينار) (محفوظة في متحف الآثار والمتاحف بكلية الآداب – جامعة الملك سعود) ضرب صنعاء سنة ٢٨٨هـ/٩٠٠م بإسم الهادي إلى الحق (عن: سعد الراشد).



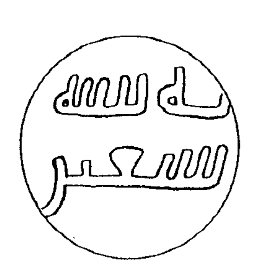

(شكل: ٨) تفريغ لنقش سكة ذهبية (دينار) (محفوظة بالمتحف البريطاني بلندن) ضرب صعدة سنة ٢٩٨هـ/٩١٠م. (عن: فرج الله يوسف).

(شكل: ٩) تفريغ لنقش إنشاء مثبت بالجدار الشرقي لقاعدة المنارة (المئذنة) الغربية لجامع صنعاء الكبير مؤرخ بسنة ٦٠٣هـ/١٢٠٦م. (عن : ربيع حامد خليفة).

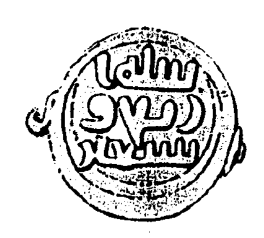



(شكل: ١٠) الدرهم الرسولي الجديد (الروبجي) ضرب المهجم ٧٣٦هـ/١٣٣٥م وتفريغ لنقوشه. (عن : فيصل الطميحي)





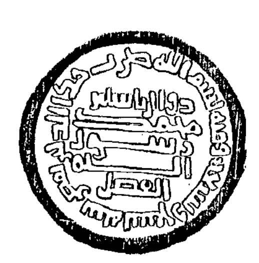
(شكل: ١١) تفريغ لنقش ختم مسكوك من الرصاص (محفوظ بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة) مؤرخ بسنة ٩٠هـ/٧٠٨م. (عن : عبدالرحمن فهمي).

(شكل: ١٢) تفريغ لنقش ختم مسكوك من النحاس (محفوظ بالمتحف البريطاني بلندن) مؤرخ بسنة ٩٤هـ/٧١٣م. (عن : عبدالرحمن فهمي).



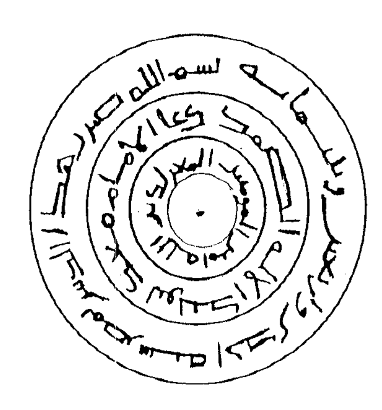
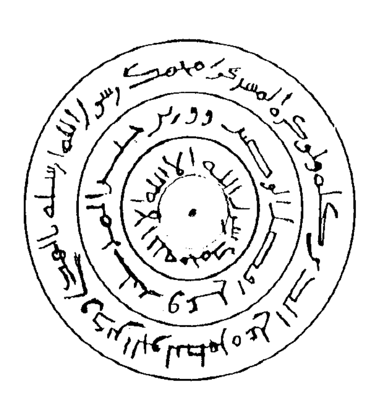

(شكل: ١٣) تفريغ لنقش سكة ذهبية (دينار) (محفوظة في متحف قطر الوطني) ضرب ١٩٧هـ/٨١٢م باسم عباد بن محمد البلخي والخليفة المأمون ، (عن : فرج الله يوسف).



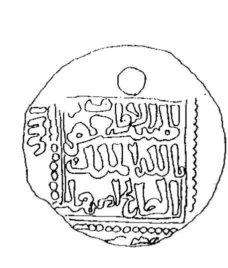

(شكل: ١٤) تفريغ لنقش سكة ذهبية (محفوظة في متحف قطر الوطني) ضرب مصر سنة ١٩٩هـ/٨١٤م بإسم الفضل بن سهل (وهو من دنانير المطلب بن عبدالله الخزاعي). (عن : فرج الله يوسف).




(شكل: ١٥) تفريغ لنقش سكة فضية (درهم) (محفوظة في متحف قطر الوطني) ضرب سنة ١٩٩هـ/٨١٤م بإسم المطلب بن عبدالله الخزاعي والفضل بن سهل ذوالرياستين. (عن : فرج الله يوسف).

(شكل: ١٦) تفريغ لنقش سكة ذهبية (دينـــار) ضــرب مصــر ســنة ٣٤١هـ/٩٥٢م بإسم الخليفة الفاطمي المعز لدين الله وألقابه والعبارات الشيعية. (عن : محمد باقر الحسيني).




(شكل: ١٧) تفريغ لنقش سكة فضية (محفوظة بمجموعة الدكتور هـنري امين عوض بالقاهرة) ضرب دمشق سنة ٦٤١هـ/١٢٤٣م بإسم الملك الصالح نجم الدين ايوب والملك الصالح اسمـاعيل. (عن : رافت النبراوي).




(شكل: ١٨) تفريغ لنقش سكة صاحب الحمار (عن : صالح بن قربه).

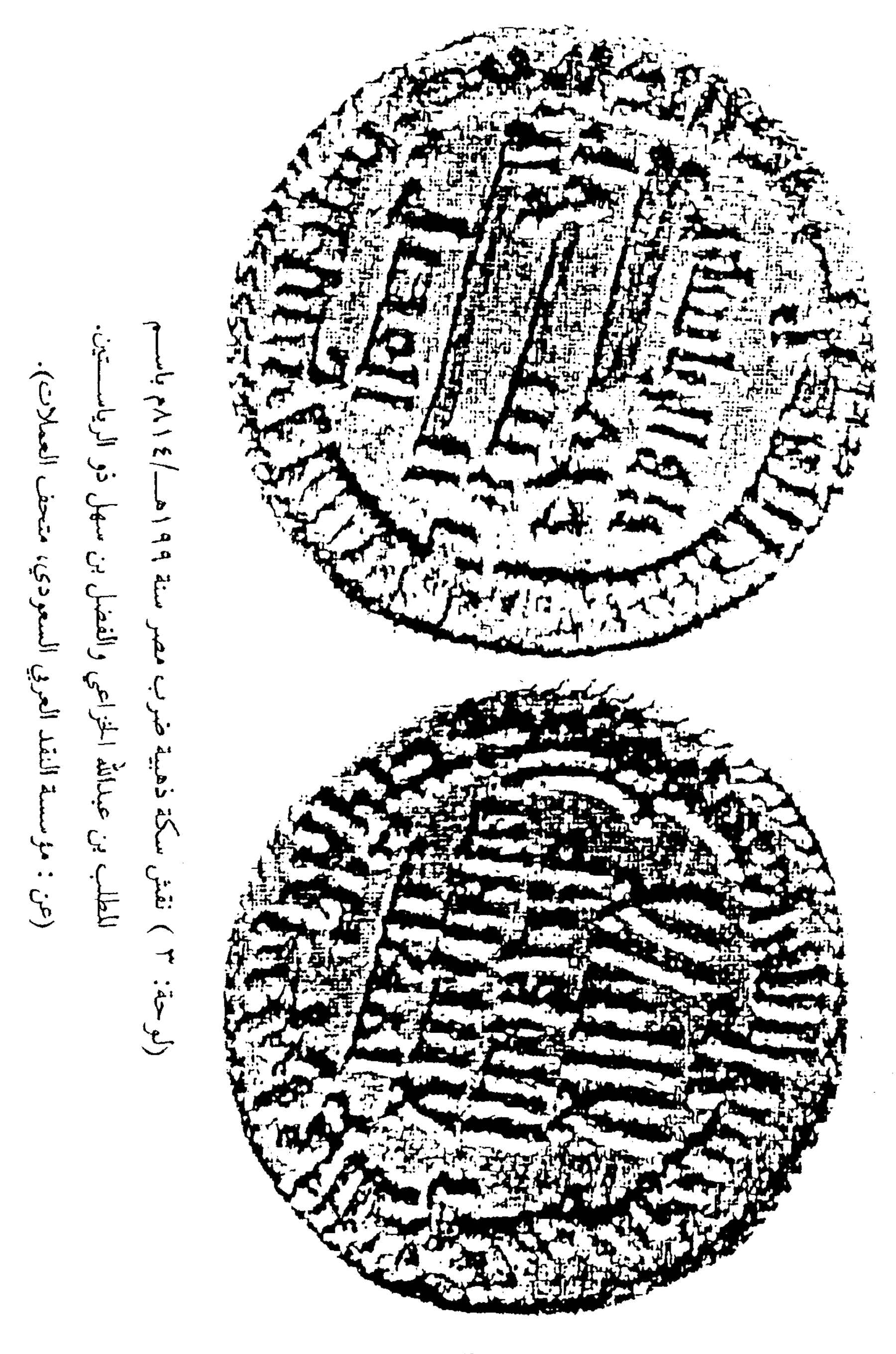


(لوحة: ١) نقش إنشاء سد معاوية بالطائف المعروف بسد سيسد مؤرخ بسنة ٥٨هـ/٦٧٧م (عن : مجلة اطلال).





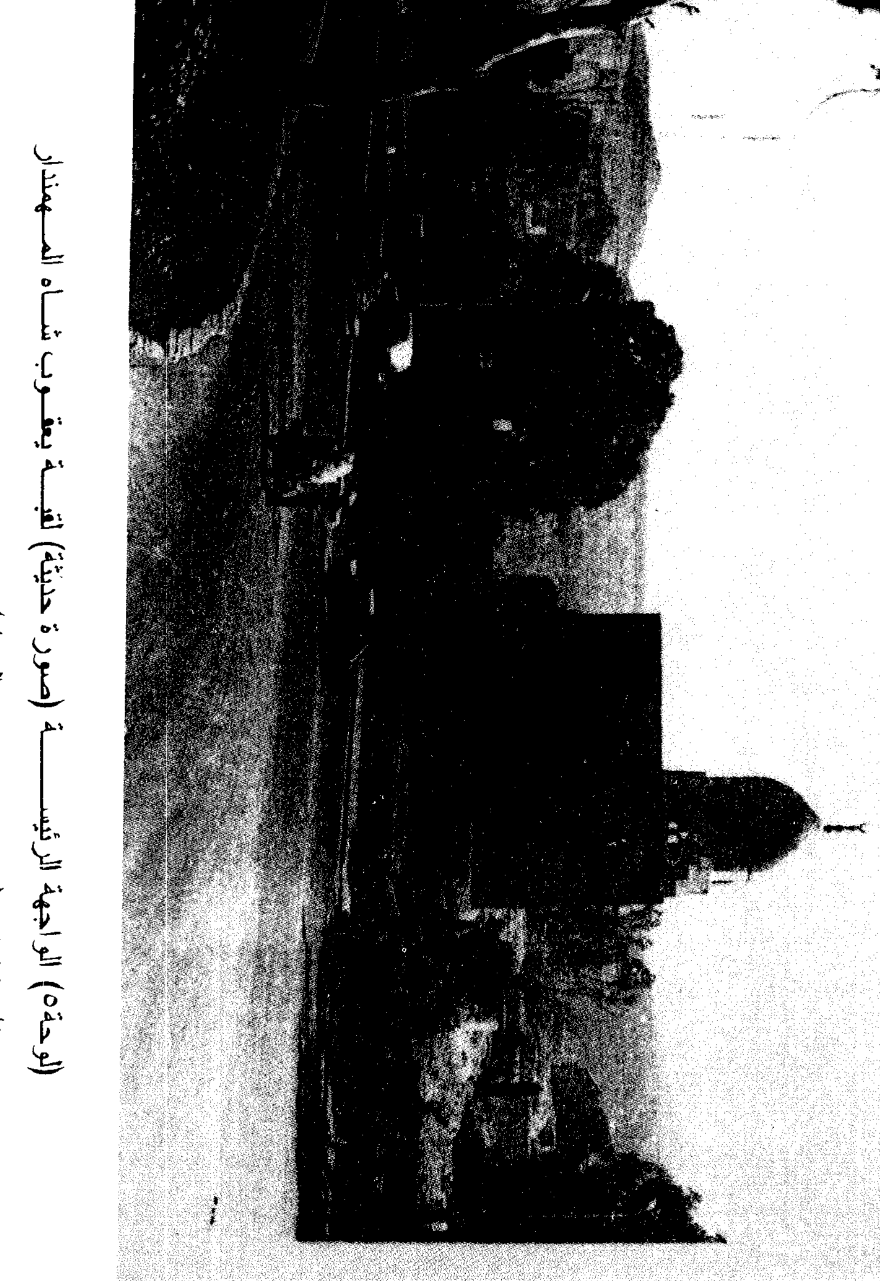
(لوحة:٢) الدرهم الرسولي الجديد (الروبجي) ضرب المهجم ٧٣٦هـ/١٣٣٥م (عن : فيصل الطميحي)



(لوحة: ٣) نقش سكة ذهبية ضرب مصر سنة ١٩٩هـ/٨١٤م باسم المطلب بن عبدالله الخزاعي والفضل بن سهل ذو الرياستين.
(عن : مؤسسة النقد العربي السعودي، متحف العملات).



(لوحة٤) الواجهة الرئيسة (صورة قديمة) لقبة يعقوب شاه المهمندار، عند مطلـــع المقطم، أمام قلعة صلاح الدين، بطريق صلاح سالم، شرق القاهرة، مؤرخة سنــة ٩٠١هـ/١٤٩٥م. (عن: محمد حمزة الحداد)

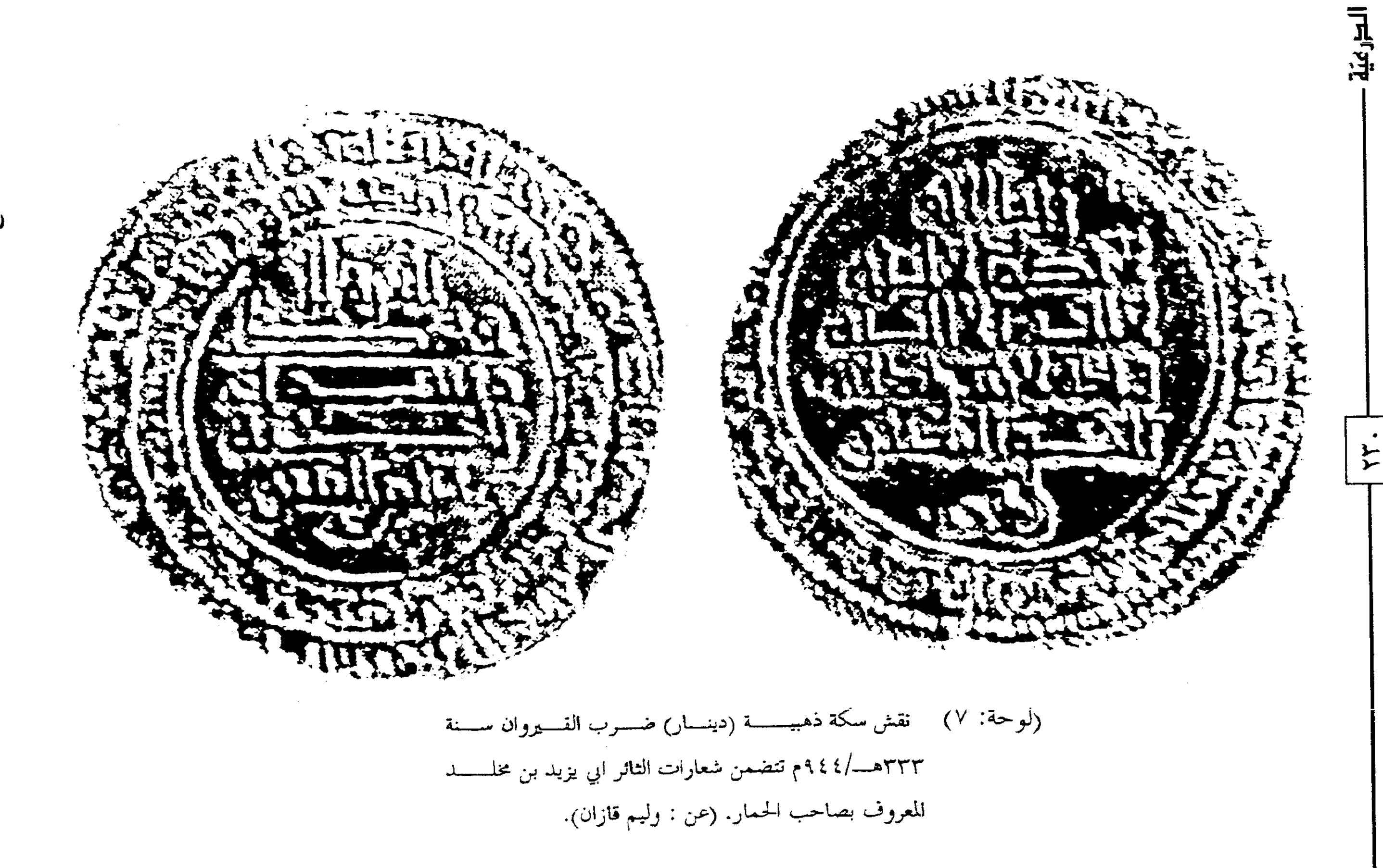


(لوحة٥) الواجهة الرئيسة (صورة حديثة) لقبة يعقوب شاه المهمندار ٩٠١/١٤٩٥م. (عن: محمد حمزة الحداد).

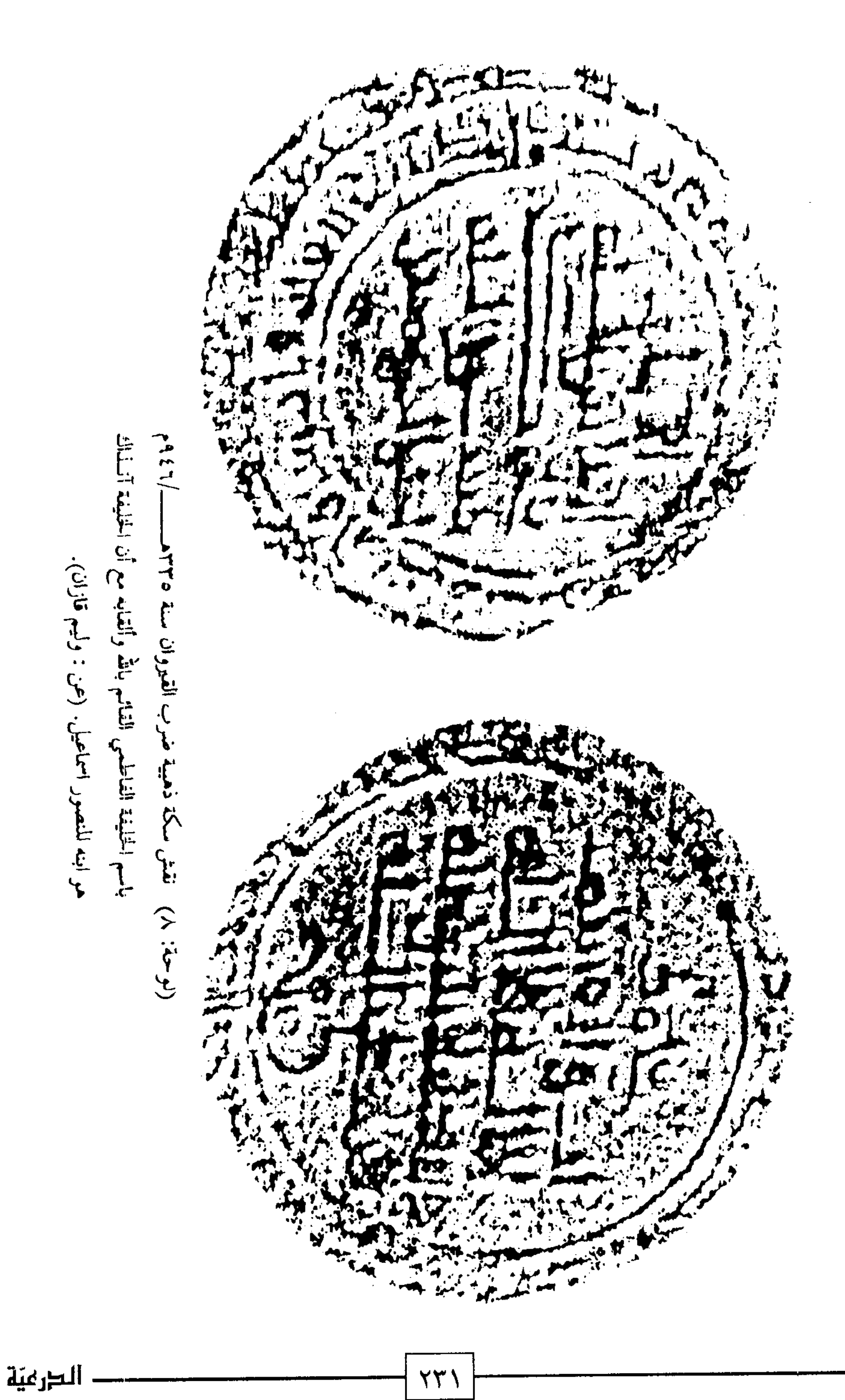


(لوحة:٦) نقش سكة فضية (محفوظة بمتحف باردو بتونس) ضـــرب افريقية سنة ٢١٠هـ/٨٢٥م باسم منصور بن نصر الطنبدي.

(عن : حامد العجابي).



(لوحة: ٧) نقش سكة ذهبية (دينار) ضرب القيروان سنة ٣٣٣هـ/٩٤٤م تتضمن شعارات الثائر ابي يزيد بن مخلد المعروف بصاحب الحمار. (عن : وليم قازان).



(لوحة: ٨) نقش سكة ذهبية ضرب القيروان سنة ٣٣٥هـ/٩٤٦م باسم الخليفة الفاطمي القائم بأمر الله وألقابه مع أن الخليفة الثالث هو ابنه المنصور إسماعيل. (عن: ولم قازان).



الوجه 1



الوجه 2

(لوحة: ٩) نقش المد المريني الاول (محفوظ بمتحف البطحاء بفاس) المؤرخ بشهر جمادى الآخر سنة ٧٣٤هـ/١٣٣٣م. (عن: محمد المنوني).